بثينة العيسى

عائشة

تنزل إلى العالم السفلي

(رواية)





عائشة

تنزل إلى العالم السفلي

(رواية)

بثينة العيسى

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عائشة

تنزل إلى العالم السفلي



الطبعة الأولى
1433 هـ - 2012 م

ردمك 978-614-01-0370-2



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

الإهداء

هالة..

أيْ شقيقةَ الرّوح والترابِ والدّم

توهّجي أكثر!

سأنتظركِ في منتصفِ الطريق..

إلى القمر.

تنويه

هذه الرّواية مُستوحاةٌ من قصّةٍ حقيقية، وقد كُتبت بتواطؤٍ صريحٍ من شراسةِ الواقع ومجاز المخيلة.

ضوءٌ في آخرِ الممر

"لئن متّ ليكونن ذلك مجداً
ولئن عشتُ لتكونّن رحمة"

– أورفيل دوغلاس

10 أبريل 2011

12:00 ص

أنا عائشة.

سأموتُ خلال سبعةِ أيّام.

وحتى ذلك الحين قرّرتُ أن أكتب.

لا أعرف كيف يفترض بالكتابة أن تبدأ، الأرجح من مكانٍ كهذا.. حيث يورقُ كلّ شيءٍ بالشك.

تبدو الكتابة وكأنّها الشيءُ الوحيدُ الذي أستطيع فعله.

أريدُ أن أضع نقطةً أخيرة في السّطر الأخير، قبل أن يبتلعني الغياب.

لقد قررتُ أن تكون أيامي الأخيرة على هذه الشاكلة. أقصد: على شاكلة الكتابة. الكلمةُ كائنٌ هشٌ ومتهافت، إنها تشبهني. وأنا.. في أيامي الأخيرة، أريد أن أشبهني بقدر ما أستطيع. إنني أفعلُ ذلك من أجلي. هذه الأوراق، هذه الكتابة، هذا الجرحُ: لي أنا.

هذه الكتابة ليست توثيقاً لحياتي. ما فات لم يكن جديراً بالاهتمام، كل شيءٍ سبق وانتهى، وهذه الكتابة لا تفضي إلى مكان، ولا أعتقد بأنني قد عشتُ حياةً تستحق أن تؤرّخ. إنني أكتبُ لكي أكون واضحةً معي، وحيدةً معي، مليئة بي. هذه الكتابة لا تداوي، بل تُميت. الموتُ جيّد، وأنا أريده من كلّ قلبي.

سأصير مثله قريباً، سوف أشبهه وأشبه موته. سوف أرى جسدي ممدداً في نفس المكان وملقىً في نفس البياض.

سوف يحينُ موتي قريباً، وستكون لي تلك الهيئة العدميّةُ البيضاء. القطن في المنخرين، في الفم، في الاذنين.. في كل ثقبٍ يمكنُ أن يكون، جسدٌ محشو بالبياض. تساءلتُ يومها لماذا يدسّون القطن في كل مكان تصله أيديهم؟ كنتُ أتساءل وأنا واقفةٌ أمام جثمانه الصغير إلى حد الفجيعة، الصغير بما يتناقض مع فكرة النهايات والقبور والرحيل. قالوا لي يومها بأنني أستطيعُ أن أدخل لأراه، لمرةٍ أخيرة. دخلتُ، لم تكن المرة الأخيرة. كل أحلامي وكوابيسي تحمل وجهه.

ماذا عساي أن أقول أكثر؟

لقد مات ولدي أيها العالم.

10 أبريل 2011

1:10 ص

هذه كتابة واهنة ومريضة.. لا تستطيع التأصيل لسؤالها، ولا سبرَ حقيقتها. هذه كتابة لا تعرف لأي غرضٍ اجتيحت حروفها، وبُعثرت، وتطايرت مثل دموعٍ من زجاج.. ولكنها – مع ذلك – تبدو فطريةٌ جداً، وربّما وحشية، واستجلابها ليس عسيراً، وكأنها كانت تنتظرني على الدوام.

إنني أكتبُ تلويحات الغريق. وفي الوقتِ ذاته أجد روحي مشدوهةً أمام فداحة المشهد وعمق السؤال: ترى.. لماذا يلوّح الغريق بيديه؟

الغريق الذي وضعوه في كيس، وقيدوا قدميه بحجر، وألقوه على عمق آلاف الأمتار من الماء والملح، حيث الظلمات سوداء مشعة.. هذا الغريق، غريقي أنا، لماذا يلوّح ولمن يلوّح؟

لا يمرُّ يومٌ إلا وأنا أسأل نفسي هذا السؤال، كابوسٌ إثر آخر، وأنا المحكوم عليها بالغرق موتاً، أو بالموت غرقاً، تلقيني أيدٍ مجهولةٍ في غياهبِ المحيط، أو في بطن بئر محطمة، أو داخل كأس بلا قاع.. الكابوس ذاته يتكرر بصيغة غرقٍ جديدة في كل مرة، والسؤال ذاته أيضاً: لماذا يلوّح الغريق بيديه؟ لماذا لا يموت وحسب؟

أعتقد بأن الكتابة التي أقترفها الآن تشبه تلويحات الغريق..

عابثة، يائسة، أليمة، وتحمل الكثير من معاني الوداعْ.

أكتب لأغرق، أغرق لأموت.. وأعتزمُ، لسبب لا أفهمه، أن أكتب موتي/غرقي، وهذه الكتابة التي هي الآن، وهنا، لا اسم لها.. إلا تلويحات الغريق، الوداعُ الذي لن يشهده أحد.

العالمُ اختفى في نقطة الضوء اليتيمة، التي هي آخر ما يراه الغريق، قبل أن يعبئ الماء رئتيه، قبل أن يصير بحرًا.

10 أبريل 2011

2:13 ص

لقد مات ولدي فعلاً.

لا توجد طريقةٌ لطيفةٌ لقول ذلك، لا توجد طريقةٌ صحيحةٌ، أو كلمة صحيحة، تفسّرُ ميتة طفل. ولكن هذا ما سوف أفعله الآن، لأنني لا أستطيع إلا أن أبدأ من هنا، من الجرحِ الذي يتكاثرُ في باطني.

سأحاولُ - مثل الغريق الذي يلوّح للحياةِ - أن أكتب ميتة طفل.

أن تكتب ميتة طفل، كما هي، بدون أن تشعرن الأمر، أو تروحِن الفجيعة، أو تُمنطق الفداحة، أو تُبرّر الكارثة، بدون شكوى، وبدون استفاضةٍ في الشجن.. هذا ما أنوي فعله.

...

...

.. ورغم أنني فعلتُ يومها كلّ ما يمكنِ فعله من صياح وهستيريا، عندما حملتهُ بين ذراعيّ وركضتُ كالمجنونة، (أو هكذا قيل لي)، دون أن أعرف أين سأذهب به، وكيف سأنقذه، أو أنقذ نفسي، من رحيله المباغت.

أذكر كم كانت السماء بعيدة، والأرض بوار، والوحدة فاحشة.. إلا أنني، وبعد مضيّ الأربع سنوات (تقريباً)، أكاد لا أفكر إلا بأمر واحد: كيف يمكن أن تكون الحياةُ ممكنةً بعد أن

حدث ذلك؟ كان عدنان يركضُ خلفي، ارجعي! ارجعي! أعطني الولد يا مجنونة! هل يمكن أن أكون قد ركضت بهذه السرعة؟ لا أدري، قيل بأنني، وعدنان، قد تشاجرنا على جثته، قيل بأنني قد نشبتُ أظفاري في ساعديه، وصرخت بأعلى صوتي، كما لو أنه لصٌ يريد أن يسرقَ جثمان ابني.. ولكنهم نجحوا في انتزاعه من ذراعي، أدخلوه في سيارة أبيهِ، وماذا كنتُ أفعل وقتها؟ هل كنت أصرخ وأمد يدي صوب الفراغ وأستجدي جثته؟ وما الذي كنت أريده بأي حال؟ أن أخبئه في حديقة المنزل؟ أن أدفنه في مكان خبيءٍ مثل كنز؟ لا أعرف عن ذلك اليوم إلا حصيلة ما جمعته من روايات الجيران، وشهادة زوجي الذي ظل محتفظاً بذاكرته على ما يبدو.

الحياةُ ما عادت ممكنة، هذا هو الشيء الوحيد الذي أعرفه يقيناً، عني وعن هذا العالم، أنا الموشومة بهذا الاسمِ الذي يناقض حقيقتي، المنذورة للحياةِ بزخم، أو هكذا أراد أبواي، كنتُ سأشبهني أكثر لو كان لي اسمٌ يشبه ميولي الانتحارية - عباءتي السوداء، وزرقة شفتي، والوجنةُ المخدوشةُ بالدمعِ، والجفنُ المتورّم، وهيئة البكاءِ الأبديّ، والموت الوشيك.

مات عزيز.. بين عينيّ، أقصد: من وراء ظهري، لماذا لم أكن أنظر إليه؟ تركته في وسط الشارع وانشغلتُ، بأي شيء؟ بالشيء الوحيد الذي أفعله في تلك الأيام، بالشجار، ورغم أنه ألحّ علي: ماما لعبي سقطت! لم أفعل شيئا، وهو.. ذو الخمس سنوات، هل كان حدسه الطفل ينبئه بأنه راحل؟ طلبتُ منه، بدون أن أكلف نفسي بالنظر إليه، بأن يكفّ عن الإلحاح، لأنني لا أستطيع أن أخطو صوبه خطوتينِ وأنتزعه من براثن الاحتمالات المروّعة، قلتُ له: عزيز أقسم بالله إذا لم تتحرك إلى

هنا سوف أضربك! سوف أرمي لعبك في زبالة الشارع! هـذه كانت كلماتي الأخيرة لولدي قبل موته.

لم يقوَ على الحراك، سقطت إحدى لعبه وما زال يمسك باثنتين، ثلاث دمى لمحاربين خارقين، ويدان صغيرتان فقط، كلما التقط واحدة سقطت الثانية، كلما التقط الثانية سقطت الثالثة، يدان صغيرتان وعالمٌ مجنون، هكذا دهسته السيارة وهو منحنٍ على لعبه يحاول جمعها، يحاول حمايتها من أن تدهسها سيارة كتلك التي دهسته، إنه لن يتخلى عن لعبه أبدا، فهو ليس مثل أمه، في اللحظة الأخيرة من حياته كان ينظر صوبي، مرتعباً.. وكأنه أدرك شيئاً هاماً.

10 أبريل 2011

2:45 ص

في الثامن عشر من إبريل للعام 2007، توفّي عبدالعزيز، ولدي الوحيد، عن عمر يناهز الخامسة والنصف، بفعل حادث سيارة، وهو يقف في وسط الشارع ويحاولُ التقاط لعبه. في ذلك اليوم بدأت حياتي تفقدُ زيفها وتصبح أكثر حقيقية، صارت أقل فراغاً وأكثر استحالة. وفي ذلك اليوم بدأت ذاكرتي ترصدُ أيّامي، وبدأ قلبي ينبض ألماً، وبدأت عيناي تفيضان، وصارت عندي خطايا تنهشُ روحي، وآثار عضات ندمٍ على كفيّ، وساعديّ، وزنديّ و.. صار للحياة لونٌ، ومعنى.

لون الحياةِ أسودٌ مُشع، ومعناها الوحيد هو الموت. بمجرد ما أدركتُ ذلك، أعني: لون الحياة ومعناها، صار جسدي يستجيب لحقيقته الوحيدة: حقيقة الفناء، وصار بوسعي أن أمُوت، وأن أعود، أن أتأرجح بين العالمين: عالم الغيبُ والشهادة، وكأنني محكومٌ علي بالتردّد الأبدي بينهما، معلقة بخطاطيفِ ألمي، في برزخٍ لا ينتهي أو يكاد.

لقد متُّ، منذ وفاة ولدي، ثلاث مرات، وعدتُ ثلاث مرات أيضاً، وكانت ميتاتي تتزامن مع ذكرى وفاته، في الثامن عشر من إبريل للأعوام 2008 و2009 و2010. ذكرى وفاة ولدي تحينُ بعد أسبوع، وستحينُ معها ميتتي الرابعة التي أظنها الأخيرة.

لهذا أنا أكتب.

أكتبُ لأنّ الأشياء لم تعد مفهومة، أو قابلة للتفسير، وأنا، بصراحةٍ لستُ مهتمّةً بتفسيرها، ولكنني مع ذلك ألوّح باستسلام وعجز، فهذا العالمُ مجنونٌ أكثر مما ظننت.

ثلاثُ ميتاتٍ، كل واحدة تقعُ في ساعةٍ مختلفة، في هيئة مختلفة، في التاريخ ذاته. مرةً بالكهرباء، ومرةً بالتسمم الغذائي، ومرةً بحادث سيارة. كل هذه الحوادث وتردداتها المتكررة بما لا تحتمله عشوائية الصُدف، وقعت في الثامن عشر من أبريل. الأمرُ غير قابل للتفسير، وغير قابل للإنكار أيضاً، كل ما في الأمر أنني، مع كل ذكرى لوفاة ولدي، أموتُ.

الساعة تجاوزت الثانية صباحاً. اليوم بدأ لتوّه، وأنا مندسة بين الوسائد ملتفة باللحاف، أكتب بسرعةٍ مخافة أن أنضب. أجلس مقرفصة على شفةِ نهايتي، مطلة على السواد، وليس ثمة نجوم، ليس ثمة أحد.

أنا وحدي كما أنا لحظة قذفتُ في الحياة، ووحدي أيضاً، كما سأكون.. تحت التراب، قريباً جداً. الوحدة - إذن - هي الشيءُ الوحيدُ المؤكد، الحقيقيّ، في هذه الحياة. الأهلون خُرافة، الأصحابُ كذبة، والزواجُ نكتة.. لقد هجرني الجميع، لماذا؟ لأنني أموتُ في كل عامٍ مرة وأعود! لأنني أخيفهم على ما يبدو.. أين هم الآن، وكلهم - كما أنا متيقنة - يفكرون بالشيء نفسه: كيف ستموت عائشة هذه المرة؟ ستغرق في زجاجة حليب؟ أم ستختنق بقطعة لبان؟ صمتهم يقولُ أشياء كثيرة عن رعبهم.

لم يخلق الأحياء لمعاشرة الأموات، الحاجز اللا مرئي، بين مملكة الأحياء ومملكة الأموات قد وجد لحكمة ما.. أنا أعرفُ

ذلك، وعدنان يعرف ذلك، وأمي، وأختيّ، وأخي الوحيد.. حتى أبي المتوفى يعرفُ ذلك، وولدي.

مع كلّ ميتةٍ، في كلِ مرّةٍ يبتلِعني الثقبُ العظيم، كانوا يتساقطون من حياتي مثل بتلاتٍ يابسة، يتساقطون خارجاً، وكأن الأمر فوق احتمالهم، أن يجربوا فقدي واستعادتي مراراً.. من أجل أي شيء؟ إذا كنت سأموت على أي حال فلماذا لا أفعل ذلك على نحوٍ صحيح؟ لماذا هذا اللعب بين العوالم، والهرطقة التي تصاحبه، عن جمال الموتِ وبهاء العالم المحتجب؟ لماذا لا أموتُ وحسب، وأسمح لهم بالتمتع بامتيازات الأهل والأقارب بأن يندبوا شبابي، ويدفنوني في بطنِ الأرض، ثم يواصلوا الحياة شأنهم شأن الجميع. أليس هذا ما يريدونه؟ القدرة على المضيّ؟ أنا التي تقلقلُ يقينهم المفتعل، معرفتهم القاطعة بكل ما يخصّ الحياة والموت والعالم الآخر؟

هذه كتابةُ مودّع، ولكنها ليست وصية. الوصية تقتضي اليقين، وأنا لا أملكه، لا أملك إلا القلق، والحاجة الغريبة إلى كتابة كل شيء، نفض كل شيء، لفظ كل شيء.. أنا لا أكتب، أنا أرفضُ هراء العالم وحسب، أريد أن أكون أكثر صفاءً عندما أرحل، أكثر خفة وشبهاً بروحه.. لعلّي.. لعلّي أتلامس معه هناك في النور.

حياة الثلاث وثلاثين سنة هي حياة قصيرة، لا يسعني إلا أن أفكر بذلك وأنا أمحّصُ في حتمية نهايتي. أخافُ إن متُّ أن أعود للمرة الرابعة.

مع كل تجربة موتٍ خضتها كنت أخسرُ بعضاً مني، ومزيداً من أقاربي، ابتداءً ببنات أخوالي، مروراً بأختيّ، وانتهاء بزوجي! كل ميتةٍ جربتها تركت في داخلي ندوباً وخدوشاً

وتصدُّعات، إن جسدي يرتعدُ الآن، وأحس بــأنني لا أســتطيع ضبطه، اهتزازاته تفوق قدرتِي على الاحتواء، ولكن لا وقــت لدي لكي أرتعد، الارتعاد ترف الأحيــاء، وأنــا وقتــي قليــل، وعمري – أيضاً – قليلْ، ينبغي أن أكتب كل شيءٍ في ســبعةِ أيام، قبل أن يبتلعني الثقب العظيم.

10 أبريل 2011

4:02 ص

عدنان نائمٌ في غرفةِ الجلوس. إنه ينامُ هناك منذ ستة أشهر أو يزيد. لا ينظرُ في عينيّ ولا يكلمني. يعرفُ بأننا مقبليْن على وقتٍ عصيب، ويبدو أن هذه هي طريقته في التعاطي مع الأمر، في هجري أنا الموشكة على الرحيل. سألته قبل فترة، من باب الفضول: هل تصدّق بأنني سأموتُ بعد أقل من شهر؟ لم يرد، صَمَتَ بوجومٍ ويده تتحرك بآلية لتعدل "غترة" رأسه، ثم غادر. لسانِ حاله يقول: ليتكِ تموتين. إذا ما نجوتُ هذه المرة، فسأتطلق من عدنان، وأجعلُ وحدتي أكثر حدة.

إذا ما قدّرت لي الحياة فلسوف أتطلّق من عدنان، وأعيش عاماً من الاستقلالية والعزلة التامة، حتى تحين ميتتي الخامسة، فأنا أعرفُ بأن هذه الدائرة، دائرة الموتِ والبعث، سوف تدورُ بي إلى الأبد، ويوماً ما، لن يكون هناك أحد لإنقاذي. يوماً ما سألج أحراشك أيها الموت ولن يتسنى لي العودة، ولكن حتى تحين تلك اللحظة فأنا عندي أشياء كثيرة لأقولها.

قبل أسبوعين تشاجرنا.. عدنان يدّعي بأن لي ميولاً انتحارية، يسألني: كيف أتأكد من أنك لم تمسكي بأسلاك الكهرباء متعمدة؟ من أنك لم تقذفِ بنفسك أمام السيارة قصداً؟ كيف يمكن أن يأكل اثنان من نفس الطبق ويتعرض أحدُهما للتسمّم الغذائي والآخرُ لا؟

منذ ميتتي الأخيرة وهو ما انفكّ يطالبني بأن أراجع عيادة الطب النفسي، حتى يتسنى للأطباء الغوص في أغوار عقلي الباطن، عالمي السفلي، الملتبس والزاخر بالأفكار الشاذة، لاستخراج الأسباب التي تدفعني إلى الانتحار. أنا لم أنتحر، لو أردتُ الموت فسأختار طرائق أكثر لطفاً. سأبتلع مائة قرصٍ منوّم وأتمدد دافئة في سريري وأحلم بابني.

يوم تشاجرنا، للمرة الألف بعد المليون، قلتُ له بأن يغربَ عن وجهي، وبأنه لا يصلحُ زوجاً، وأنني ألعنُ ساعة زواجي به، وإنجابي منه، وكلّ شيء.

الحقُّ بأنني لم أكن منصفة بحقه، يمكنني أن أتصوّر معنى أن تعيش بصحبةٍ امرأة ماتت وعادت ثلاث مرات. لقد جرّب عدنان فقدي ثلاثاً، واستعادني ثلاثاً، والأرجحُ أن خوض تجربةٍ رابعةٍ من هذا النوع أمرٌ يروّعه هو أيضاً. من يريد أن يعيش تحت تهديدِ الزوال؟ كلنا نموتُ، ولكننا لا نفكر بالموتِ مهما حثتنا الأحاديثِ النبوية على ذلك، نحن نحيا ممتنين إلى حقيقة الحياةِ، والموتُ هو نهايتنا المؤجلة دائماً.

ليلة متّ لأول مرة، خرّ عدنان على ركبتيه، وأطلق في وجه العالم نشيجه، قال: لا تذهبي أنتِ أيضاً، لا تتركيني يا عائشة! في ميتتي الثانية بكى أقل، في ميتتي الثالثة لم يبكِ أبداً.. هذه المرة، ربما، سيقتلني بيديهِ، ويرتاح.

نظرية عدنان مبنية على أسس منطقية، فرويدية، دوغمائية بما يفوق الاحتمال. نظرية عدنان هي الآتي:

بما أن إحساسي بالذنب يدفعُني إلى الانتحار، وشريعتي السماوية تحرّم علي ذلك، يهرعُ عقلي الباطن، لا شعورياً، إلى تحقيق أمنيتي بقتلي، لكي أموت مثل ولدي! وهو الأمر الذي

يحدثُ عندما يبلغ إحساسي بالذنب أوجه، في الثامن عشر من أبريل من كلّ عام، في ذكرى وفاة عزيز.

هذه هي نظرية عدنان، وهي نظرية مُحكمة ومتماسكة وتتكئُ على أُسُس علميةٍ جداً. ولكنّها مع ذلك غير صحيحة، لا يهمني إذا كان الأمر قابلا للتأويل على هذا النحو، ففي نهاية المطاف، لا يمكن أن تكون الأغذية الفاسدة، وحوادث المرور، وصعق الكهرباء شيئاً من صنعي.

أليس كذلك؟

10 أبريل 2011

5:07 ص

"أيها الموت! ليس بمقدوري انتزاع نفسي من التأمّل العذبِ في طبيعتك الرقيقة، المرتبطة ارتباطا وثيقاً بطبيعتي، يا مرآة روحي وانعكاس وجودي!"

فويرباخ.

هذا ليلٌ طويلٌ من عمرٍ قصير. سأمعن في مديح الموتِ هذه الليلة. فأنا، بأي حال، لا أريد أن أنام، فيتآكل عمري سويعاتٍ أخرى، ألم يقل الإمام علي: "الناس نيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا" انتبهوا إلى أي شيءٍ يا ترى؟ إلى حقيقة الفناء؟ أنا منتبهةٌ جداً، مدركة لكل تكّة من عقارب الساعة، لكل لحظةٍ تتسرب من حياتي. سأمعنُ في مديح الموت، إذن، لعلي إذا ما فعلتُ ذلك، صار رعبي أقل، وألمي. لعله إذا أتى أن يكون لطيفاً معي، كما يلطف السلاطينُ الجائرون، بالشَعراءِ المتملّقين، فهذا الخوفُ الذي يقرضني على مهله هو شيء لا أستطيع إنكاره.

سأمعنُ في مديح الموْت، بحكمِ أنّني، ولاسيما في السنة الأخيرة من حياتي، أوغلتُ في التأمل في كلّ ما يخصه، حتى صرتُ متخصصة في شئون التناهي، والفناء،

والانقراض، والانتحار، وأساليب الدفن القديمة، ومشتقات الموتِ الأخرى.

إذا ما كان الموت غريزةً أخرى، دودةً شرهةً تلتهمنا على مهلها، فلا يجدر بي أن أخشى طبيعتي، وأن أنشز عن غرائزي. أليس كذلك؟

يقال بأن الموت لغةً هو السكون. لا يمكن أن يكون السكون شراً، كل الفلسفات الوضعيةِ تبحثُ عن السكون، الطاوية والبوذية والهندوسية، كلها تمجّدُ السكون، وتقدس اللا فعل، اللا حركة. السكون هو أكثر شيءٍ أريده.

قالت العربُ أيضًا بأن الموت هو النوم الثقيل، وبأن المنام هو الموتُ الخفيف. سأنام لاحقاً إذا، والنوم بأي حالٍ ليس أمراً سيئاً. إذا ما كان الموت نوماً ثقيلاً لا يفيق منه المرء، فليس عندي ما أخشاه، باستثناء أنني أرى الكثير من كوابيس الغرق مؤخراً، وأخافُ أن تلحقَ بي إلى هناك.

سأمعنُ في مديح الموت!

وردت لفظة "الموت" في القرآن الكريم في 161 موضعاً، أو هكذا قرأت.[1] وقد كان الموت دائماً مقدماً على الحياة، وهذا يعني ببساطة أن الموت هو المبتدأ، والمنتهى، وأن الحياة هي برزخٌ في المابين، وأنا الآن أقف على حافةِ البرزخ وأحدّق في الهاوية وهي تكشّر في وجهي.

عندما رأيتُ الموت لأول مرة كنتُ في الثانية عشر من عمري. كنتُ مع والدتي واثنتين من خالاتي، في مجمع "الصالحية" نتعشى في أحد مطاعمه. أردتُ أن أذهب إلى الحمّام فعبرتُ مَمَراً مظلماً وهزيلاً بواجهة زجاجية يطلُّ على مقبرةِ الصالحية التي ترامت أمامي بشواهد قبورها التي ملأت الأرض

حتى أقصى أقاصيها، تملأ المساحاتِ وتفيض من وجه المكان ممعنةً في تأكيد الحقيقة الوحيدة التي لا تقبل الدحض: حقيقة الزوال. لم أكن أعرفُ بأن الموتى كثرٌ هكذا!

شعرتُ بتشنّج في ساقي، عجزتُ عن الحراك، أغمضتُ عيني، وسددت أذنيّ بيدي، وجلستُ على الأرض أمام الحائط الزجاجي المطل على المقبرة، وأخذتُ أئنّ في ظلامِ الممرِّ الوحيدِ.. بلّلتُ ملابسي، هذا ما أتذكره أنا، أمّي تقول بأن تلك إضافة من خيالي.

كلما تذكرتُ لقاءنا الأول، أيها الموت، تساءلتُ: إذا كان الموتِ غريزة، يا فرويد، فلماذا هو مرعبٌ إلى هذه الدرجة؟ الموتُ في رؤوسنا هو دائمًا موتُ شخصٍ آخر. بعد ذلك المساء كنت كثيرًا ما أفكر: متى ستموت جدتي؟ أمي؟ أعمامي وأخوالي؟ كنتُ أفكر في الموت وكأنه شيءٌ يخص الآخرين، الآن عرفت بأنه يخصني أكثر منهم.

حياتي في السنة الأخيرة باتت تثيرُ رعب الجميع لدرجة أن رحيلِي القادم يبدو خلاصاً. لماذا أحيدُ عن الموضوع؟ لماذا ما عدتُ أمتدحك أيها الموت؟ أم أن فداحةَ حقيقتك هي ما يستولي عليّ الآن ويُقلقِلُ تماسكي؟ في ذلك المساء ظلّت أمّي تتذمرُ من إدارة المجمع التي منحتنا تلك الإطلالة الفادحة على حديقة العدم. هل يعقل أن أكثر مجمعات الكويت رقيا وفخامة وغلاءً تطل على مقبرة؟ أنا وجدتُ الأمر مناسباً جدًا، عندما تشتري امرأة حقيبة لويس فويتون بألف دينار، ثم تتأمل قبور الغابرين، ستعرفُ حينها بأن تلك الحقيبة التي تحسها بأنامها هي محض كذبة، وأن تلك القبور هي حقيقة وجودنا الوحيدة، وأن الموت هو هدف حياتنا الحق[2].

إن القول بأن الموت جزءٌ لا يتجزأ من الحياة هو قولٌ مفهومٌ، ولكن القول بأن الموت هو غريزة الكائن شيء آخر. نحن نستجيب للغرائز بسهولة، نحب إشباعها ونستلذُّ بذلك. وإذا كان الموت غريزة موروثة في أجسادنا فلماذا نكرهه؟ أنا لا أعتقد بأننا نمتلك يقيناً حدسياً بالموت، الأرجح أننا نكتشفه من خلال التجربة، مثلما ارتطمتُ أنا بآلاف القبورِ المترامية خلف مجمع الصالحية، واكتشفتُ الثقب الأسودَ في قلبي.

سأمعنُ في مديحِ الموت، إذن. سأغازلُه وأداهنه، سأنبشُ في جميع كتبي وأستخرج ظهوراته وتجلياته وملابساته، سألاعبه وأداعبه. سأتملّى في وجهه، وأتأمل في حكمته. سأجعله أكثر خفة وبساطة.

الموتُ واضح، الحياةُ ملتبسة. الموتُ بسيط، الحياة معقدة. الموتُ "عالمٌ غريب يفتن الصغار[3]" والحياة، عالمٌ مخيفٌ يرعبُ الكبار!

سأمعنُ في مديح الموت.

فضائلك كثيرة يا مولانا، فأنت تفسح المجال للآتين، تهبهم المساحات، وعندما تضيق الأرض على العالمين، فأنت تصنعُ من لحومنا أرضاً، ومن ترابنا يغتذي الزرع، ومن الزرع تغتذي البهائم، ومن البهائم والزرع معاً يغتذي الإنسان.. أنت الجندي المجهول الذي ما فتئ يخدم البشرية بإخلاص، وما فتئت البشرية تتنكر لجهوده وتمعنُ في بغضه.

لم نقدرك حق قدرك، لم نشكر جهودك، لم نذكر مناقبك قط! كلنا ندينُ لك، أيُّها الموتُ، فأنت أعطيتنا فسحة للوجود، ومساحةً للعيش. لم تتأخر عن عملك قط، أنت دائما في موعدك، تعمل ليلاً ونهارًا، بدون إجازات، بدون فترة راحة، لا تمر

لحظة عليك إلا وأنت تقبض روحاً، وأهمُّ ما في الأمر أنه يستوجب عليك أن تقبض أرواح الخلائق.. ولا أحد سيقبض روحك يا مسكين! أنت محكومٌ عليك بالحياةِ أيها الموت! أراهن بأنك كلما قبضت روحاً، وأطلقتها لتحلق في السماوات حرّة، أن تتساءل: متى سيحين دوري؟ مأساتك شاسعةٌ أيُّها الموت، يرهبك الجميعُ وليس لك أصدقاء، يتحاشاك النّاس كما لو كنت مجذوماً، يتطيّر الناس من ذكرك ويمعنُ الجميع في هجائك.. كان الأجدر بهم أن يتفكروا في فضائلك، وأن يمعنوا في مدحك، كما أفعلُ أنا.. أيها الموت.

10 أبريل 2011

11:32 ص

الساعة تجاوزت الحادية عشر صباحاً. نمتُ بدون قصد، نمتُ غصباً. أهدرت بضع ساعات. كيف سمحت لذلك بالحدوث؟ استيقظت كالملدوغة وأنا أبحث عن أوراقي وأقلامي، أهدرتُ ليلةً كاملة في كتابةٍ لا تخصّني، ماذا حصل لي البارحة؟ كنتُ أحس بأن الكون نديمي، يجالسني في غرفتي. ولما نمتُ بدون قصدٍ، رأيت الرّبة السومرية إنانا في المنام، وسألتها: متى ستنزلين إلى العالم السفلي؟

إنني أكتب وكأنني مدربة على الكتابة منذ الأزل. لقد أردتُ، طوال حياتي، أن أنجز مؤلفاً أدبيًا. لم يخطر لي أن هذا النصّ سيتمحور حولي، وأنه سيكون شيئا أشبه بخطبة الوداع التي أنوي تركها قبل أن تقبض روحي للمرة الرابعة، بدون عودة على الأرجح. عن أي شيءٍ كنت سأكتب لو لم تنعطف حياتي بهذا الاتجاه؟ حياتي العادية، الباهتة، الفارغة، المُملة جداً؟ حياتي الفارغة من التجارب، من الأحداث، من الأخطاء على أحسن تقدير؟ لم تكن حياةً جديرة. لم أسافر بما يكفي، لم أجرّب بما يكفي، ومنذ أن تزوجتُ نسيتُ حقيقتي، ومنذ أن توفي ولدي وأنا أرى خُرْماً يجتاحُ صدري، يكبر كل يومٍ، تتسرب منه حياتي.

أكتبُ إمّا واقفةً على حافة العالم، أو لا أكتب أبداً. أشعرُ بعوالم الكتابة تتفتق بين أصابعي، الأمورُ التي قرأتها ونسيتها

تبعث فيّ، الأقوالُ التي مررتُ عليها عابرةً تجتاحُ ذاكرتي مثل تيارٍ يشحن رأسي بالعالمِ حتى أستطيع لفظه خارجاً قبل أن أموت. الحياة الآن، هي بين أصابعي، وأنا أمارس عليها نوعاً من السيادة، لأنني أختارُ أن أكون، بالكتابة، وباختياري لذلك أكون سيدةً لموتي أيضاً.

إنني أستعيدني الآن، في الأيام السبعة التي تبقت لي. أتذكرني، أسترجِعُني، بعد حياة الاستلاب والتشيّؤ. الكتابة، ليلة البارحة، والمراجع التي تغطي سريري، وإنانا التي ظهرت في المنام.. كل شيء يبدو جميلا الآن. أشعر بأنني أقوى، وبأن في غرفتي هواء نظيف، لم يفسده العالم. أحسّ بأنني بكر، وبأنني ولدتُ للتو، وبأن حياتي في السبعة أيام القادمة ستكون ذات معنى.

الكتابة تأخذ بي إلى تعاريج ما حلمتُ بها، كلما قررتُ أن أكتب عن حياتي، عما حدث وعما يحدث، يملؤني الوجود ويفيض العالمُ وتصبح الكتابة أكثر التباساً، تسكنني الأساطيرُ، ربات سومريات، قصائد وألواحٌ طينية، عوالم تتفتق، وأنا مفتونة بالأكوان التي تعمر غرفتي، سكرتُ بالعالم، سكرتُ بالموتِ، والمعرفة، سكرتُ..

أنا، منذورةٌ للكتابة، مصطفاةٌ من أجلها، وأكتبُ وكأن قلبي محبرة.

10 أبريل 2011

1:35 م

لم أرَ عدنان اليوم. في العادة يترك لي رسالة بأنه سيتأخر، ولكنني منذ أسبوعٍ تقريباً، أعيش وحدي. أنامُ وحدي، آكل وحدي، وأبكي/أكتبُ وحدي أيضاً. شجارنا الأخير لم يكن هيّناً، ولكنه أيضا لم يكن من الشدّة الكافية لكي تتصدّع زيجتنا على هذا النحو. المؤلمُ في الأمر، أنّ غيابه بات مريحاً، وفكرةُ أنني لم أتزوج منه قط، تبدو أكثر قابلية للتصديق. الصمتُ الفاحش هو الشيء الوحيد الصحيح في حياتنا. إذا كان لابد من أن أختار بين أن أعترف بجنوني الذي يفترض، حتى يتسنّى له أن يزجَّ بي في مصحّ نفسي ويتحرّر من عبئِي، فأنا لن أمنحه هذا الانتصار. إنني أتساءل، لو أنني انصعتُ له، بدعوى الحفاظ على زواجنا، وسلّمت بالجنون واعترفت بميولي الانتحارية، كيف ستتغير حياته؟ لعله سيهرع إلى الزواج من امرأةٍ ثانية، وسينجب منها بنين وبنات، وهو الأمر الذي عجزتُ عن منحه له. سيصبحُ تجاوزي أمراً أسهل، وسيتعاطفُ معه العالم بأسره بحجة أنه مسكين، جنّت زوجته منذ توفيِ ولدها! ماذا يفعل الرجل بعد أن طار عقل امرأته؟ هل يطرقُ أبوابَ الحرام؟

اهدأ يا عدنان، يا صغيري! لا داعي لكل هذه الجلبة، فأنا على أي حال، ميتة في غضون ستة أيام وسبع ليال. لا داعي

للقلق، يا زوجي يا سبعي، يا ضبعي! يا ظل الحائط الذي تهاوى فوق رأسي ودقّ عنقي، سأعتقك على نحوِ ما تشتهي، وأنهي هذه الكذبة التي تسمى: زواجنا. لا عليك.

أشعر برغبة أمومية لهدهدةِ قلقه، هذا الطيرُ المفجوع الذي يندبُ حظهُ ويلعنُ ساعة تورّطهِ بي. لن يطول الأمر! ستة أيام وينتهي كلّ شيء. اللعنة، كم هو مزعج أن يكره الناس حياتك، ويتمنوا موتك! إنني أكتبُ هذا المساء، وقلبي ثقيل. ناقمةٌ على الذاكرة وهي تفيضُ باللحظاتِ المسروقة. أين ذهبت حياتي؟ هل عشت ثلاثاً وثلاثين عاماً لكي يتمنى الآخرون موتي؟ ما كان هذا الأمر ليخطر لي ببالٍ وأنا جالسة في غرفة الضيوف، وعدنان جالسٌ عن يميني، لأراه لأولِ مرّةٍ في حياتي، أتملى فيه كلما التفتَ لمحادثة أخي معاذ، أسترقُ النظر إلى وجهه وأتساءل: لماذا يبدو أنفه كمنقار؟

كان ذلك أول لقاءٍ لنا، أول لقاء مع عريس الغفلة، الذي قرر الجميع بأنه مناسبٌ لي، ولكنهم مع ذلك منحوني فرصةً لأقرّر الأمر بنفسي، قال لي أخي يومها: الرجل ممتاز! شهادة جامعية، وعائلة كريمة، وسمعة طيبة.. ولكن فكّري أنتِ، استخيري وقرري. تساءلتُ في قرارتي تلك الليلة: أي فرقٍ سيحدث لو قبلتُ أو رفضت؟ إن لم يكن هو، فسيكون غيره، بالآلية الميكانيكية إياها، إنني أدركُ بأن الفارس الأسمر على الحصان الأبيض هو محض خرافة. هكذا تزوّجت أمي، وجدتي من قبلها، وجدّة جدتي، وكل امرأة أعرفها تقريباً، وهكذا تزوجت أختيّ اللتان تكبراني أيضاً. من أنا لكي أطالب برجلٍ يختارني؟ أو أطالب - لا قدر الله! - برجل يحبني؟ وكيف سيختارني هذا المتعوس وهو لا يعرفني، ولا يستطيع أن

يعرفني إلا بعد أن يكتب الكتاب ويوقع عقد التمليك ويتم تسليم الصداق؟

لم أفكر بالأمر، ولم أقرّر، ولما سألني معاذ عن رأيي بعد ثلاثة أيام، قلتُ ببساطة "إلي تشوفونه"، ولأن سكوت العذراء إذنُها، وإذنها سكوتها، ابتهج الجميع بالموافقة. هكذا ألقيت بالكرة إلى ملعب أخي وأخوالي وأعمامي، حتى يتسنى لي أن ألومهم لاحقا إذا ما فشل مشروع الزواج. حسناً، لم يكن ذلك عدلاً، ولكنها قلة الحيلة وإرهاصاتها!

في غضونِ شهرٍ تم عقد قراننا، وبعد شهرٍ آخر وجدتُ نفسي في غرفةٍ واحدة مع هذا الرجل الغريب الذي يسمّونه زوجي. أمي كانت تقول، الرجال متشابهون. يريد الرجل من المرأة أن تملأ معدته وتدفئ سريره، إذا ما حققت له ذلك فهو إنسانٌ سعيد. أنا صدقت كلام أمي، قلتُ لا جدوى من التفكير بأن حياتي ستنحو منحى مختلف لو لم يكن هو، لا جدوى من القول بأنني كنت سأغدو أكثر رضا مع غيره. قررتُ بأن أقبل بكل عاداته، وهو - بصراحة - لم يكن بذات السوء. كان، مثلا، حريصاً على الصلاة، ويحب أن يوزّع الدنانير على العمّال البنغاليين، ويتورّعُ عن قتل النمال.

في الوقت نفسه كنت أحسّ بفراغٍ لا يحتمل. كما لو أنني أرطنُ بلغةٍ لا يفهمها، ولفرطِ ما كنا بعيديْن، كان التلفزيون هو سيد العلاقة، وكنا قادرين على التفرج على أربعة أفلام متتالية، في نهار واحد، من أجل تمضية الوقت، حتى لا يضطر الواحد منا إلى محادثة الآخر. العطلُ الأسبوعية كانت الأسوأ، لأن المشاغل التي نبرر بها نأينا كانت تتعذر، كان يصحبني إلى المطعم في مساء كل جمعة، لنتعشى بصمتٍ، ونتبادل كلماتٍ

قليلة، ثم يعيدني إلى بيت أهلي ويذهبُ إلى ديوانيته. في أيام الأسبوع الأخرى كنا نملك أشياء نقولها، نضحكُ على مديره، ونتذمر من عدم وجود مواقف سيارات في مقريّ عملينا، وأشياء أخرى قادرة على تبديد أعمارنا بأقل ضرر. كنا نبدد حياتينا معاً، ننتظر أن يحدث شيءٍ وينخلعُ واحدنا عن الآخر، موتٌ مفاجئ، أو خيانة تبرر الانفصال بدون حصدٍ كثير من الضغط الاجتماعي والعتب الأقاربي! كنت أتخيل لو أراهُ مع امرأة أجنبية. ثم أحزم حقائبي وأعود إلى أهلي وأنا أولولُ وأطالبُ بتطليقي من زوجي الخائن، ولكنني في قرارتي كنتُ سأشكره، لأنه منحني سببًا لتركه.

ما الذي جعلنا نبقى في حياةٍ كهذه؟ نحن شريكان في الجرم، ومتواطئان في التعاسة، وطوال سنواتي السابقة كنت أفكر بأن هذه الحياة هي أفضل ما يمكن أن أحظى به، وبأن زوجي ليس سيئاً مثل غيره، فهو لا يخونني، وإن خبأ في كمبيوتره الشخصي صوراً لأنجيلينا جولي ومارلين مونرو، فالأمر لا يتعدى ذلك، هو لا يشربُ الخمر، ولا يتعرّض لي بالضرب، ومؤدب إلى حدٍ كبير، إنه كما قال معاذ قبل سنوات: رجلٌ ممتاز. هل هذا يعني المشكلة تكمن فيّ؟ أم أن امتيازات الرجل وخصال المرأة ليست أسبابًا كافيةً لخلق علاقةٍ سعيدة؟ ولكن من أكون أنا لكي أشكّك في النظام؟ من أكون أنا، لكي أقترح صيغة بديلة للزواج، وشكلاً مختلفا للعلاقة؟ بكائي السّري كل ليلة، بدون سبب، كان عادتي الخفية التي لا يعلم بها أحد، وبعد مرور السنة الأولى كنتُ على مُفترق طرق: إما أن أدمن حبوب الاكتئابِ، أو أن أنجب أبناءً من هذا الرجل لكي أنشغل بهم، عنه وعني.

اخترتُ الطريق الأقل وعورة والأكثر أماناً: اخترتُ أن أنجب! والآن أنا أرقصُ رقصة الطير ذبيح الألم، على نشيج المعرّي:

ألا تفكّرت قبلَ النسلِ في زَمنٍ
بهَ حللتَ فتدريً أين تُلقيه
ترجو له من نعيم الدهر ممتنعًا
وما علمتَ بأن العيش يشقيه[4]

كانت تلك أنانيةٌ مني.

10 أبريل 2011

7:13 م

بكائي حادٌّ مدبّبُ الأطرافِ، مثل شـيفرة مغروسـةٍ فـي معصمي،

بكائي فجائعيّ، يبعثُ الفوضى في أكـارعِ الأرض، مـن أقصاها إلى أقصاها،

بكائي طفلٌ يركضُ في الزحامِ، بين شوارعِ قلبي، يريدُ أن ينفذ من أقطارِ هذا الحزن، عبثاً،

بكائي غناءٌ مرقعٌ بالنشيج،

بكائي مهرّج يضربُ رأسه بالجدارِ لأنه ليس مضحكاً،

بكائي سجينٌ يلحسُ قضبان الزنزانة لعلها تذوبْ،

بكائي فيضانٌ أسودْ، يطفرُ من مسامي، يسيلُ مـن ثقـوب جسدي، يملأ الفضاءْ،

بكائي وجهٌ محروقٌ بأسيدِ الذاكرة،

بكائي قبيلةُ ديدانٍ تنخرُ حقيقتي،

بكائي معتقٌ وموجِعٌ، مثل ذنبٍ لا توبةَ له،

...

...

بكائي، هذا المساء، يشبهكَ، يا حزنيَ الغافي في ليلِ قلبي، خفياً وملتبساً، يا ولدي!

بكائي هذا المساء لهُ عينك وشفتيك وأرنبة أنفك.

بكائي هذا المساء له وجهك يا عزيز.

10 أبريل 2011

10:43 م

آه يا عزيزْ.

يا ولدي. أيها المنبثقُ من باطني، مثل صرخة الميلاد، وحشرجة الرحيل.

يا مجلجلا أطرافي، يا مزلزلاً أركاني!

أيها المغروسُ في كبدي مثل صارية،

أيها الحزن المعشوشبُ في خلاياي.

في مسامي

في متاهات أيامي.

آهٍ يا روحي التي تمزقت، يا أمومتي التي تبعثرتْ، يا إنسانيتي التي تكسرت..

آه يا عزيز!

الساعة الآن تجاوزت العاشرة والنصف، وأنا منذ ثلاث ساعاتٍ أبكيك غرقاً. جسدي ما عاد قادراً على العومِ في لجّة الألم، ضاقت بي الأرضُ - يا ولدي - بما رحبت، وهذه صورُك تغطّيني، تحاصِرُني، تخنقني، تُضحِكُني، تبكيني، تدميني.. مبعثرةٌ فوقَ لحافيِ، توقظ فيّ حضورك، وأنا مرميةٌ من صورةٍ إلى أخرى، مطروحةٌ من ذكرى إلى أخرى، أخزن وجهك فيّ، أتشرّب ملامحك وأستسلم للذاكرة وهي تستلّني على مهلها. الجرحُ يدوّي في داخلي، يشرّعُ فاهُ مثلَ ثقبٍ عظيم،

الثقبُ إياه الذي يريد ابتلاعي، وأراني، بين البكاء والبكاء الآخر، أطفو فوق المشهد، آنسةً بقربك، بروحك التي تظلل كل شيءٍ، مثل سقفٍ رؤوم..

آه أيها العزيز، مسّنا وأهلنا الضر! وأنا الثكولُ أتفجع بك منذ أربع سنوات، وقد متّ ثلاثاً، وعدتُ ثلاثاً، وأنت ما زلت تستعصي، أيها البعيد، أيها البعيد!

بكيتك الليلة كما أبكيك أبدًا، كما سأبكيك سرمدًا. رحيلك فادحٌ، ووجهك يا ولدي، بصفرةِ المرض وهزالِ العافية، يلاحقني وألاحقه، ولكنني لا أدركه، يتبدد كلما مددتُ يدي، بيأسٍ، في بطنِ الفراغ، لأتحسس أصابعك، لأعاتبك على جفاف بشرتك، ثم أشرع في دهنِ يديك بالكريمات وأنا أتذمر، كأم.. أتذمر كأمٍ يا عزيز! ما عاد بوسعي ذلك، هل تتصور الأمر؟

أغراضُك ما زالت كما هي، لُعبتك المفضلة، تلك الصغيرة جداً التي طالما تساءلتُ ما الذي جعلك ملتصقًا بها إلى تلك الدرجة، من بين سائر لعبك؟ تذكُر تلك اللعبة يا ولدي؟ لم أحضرها أنا لك، ولا أبوك، ولا حتى جدتك.. كانت هديةً مجانيةً مرفقة مع وجبة أطفال مكدونالدز اشتريتها لك في طريقِ عودتنا إلى البيت ذات مساء، وكانت الهدية مجسمًا ضئيلاً لبطلك المفضل: الرجل العنكبوت. هذه اللعبة، من بين سائر لعبك، لم تتركها من يدك، كنت تأخذها معك إلى الزيارات العائلية، والحمام، والسوق، والحضانة.. ولما نبهتك إلى أنها يمكن أن تضيع هناك قلت لي: ماما ضعيها في حقيبتي. كان يكفيك أن تشعر بها قريبة، في حقيبة ظهرك، وكان مجرد تفكيرك بها يمنحك القوة والأمان، الأمران اللذان عجزتُ أنا عن منحهما لك، ونجحت في ذلك لعبة بطول خمس سنتمترات.

الرجل العنكبوت، أبقيه في حقيبتي منذ رحيلك، وأتساءلُ لماذا لا يمنحني وجوده القوة والأمان، كما فعل معك؟ لماذا أنا ما أزال خائفة، يا ولدي، وهشة جداً؟ في يوم دفنك، أسررتُ لأبيك برغبتي بأن أضع لك اللعبة داخل قبرك، طلبتُ منه أن يدسها خلسةً في كفنك.. والدك صرخ في وجهي ونعتني بالمجنونة، قال بأنها عادةٌ وثنية، وبأن عليّ أن أستغفر. وأنا، كل ما أردته، أن تجد لعبتك المفضلة قريبةً منك، ولكنها الآن هنا، في حقيبة يدي، مع محفظتي وعلاقة المفاتيح وقلمي، الرجل العنكبوت يعيش بين أغراضي منذ أربع سنوات، ونحنُ نتبادل الحديث أحياناً، نتحدث عنك.

غرفتك كما هي يا ولدي. زرقاء كالبحر. حقيبتك "الباربي" في دولابك الصغير، وقميصك الأحمر المفضل لديك، لم أغسله منذ آخر مرة ارتديته فيه. عثرتُ عليه بين أكوام الغسيل كما العاثر على كنز، ودفنتُ وجهي فيه، أشمّه وأتنشق رائحة جلدك أو ما بقي منها. قميصك مخبأ بين ملابسي، بين فينةٍ وأخرى أبحث عنه وأشمّه. وأعرفُ بأنك على عكس أمك مولعٌ بالترتيب، تضع كل شيء في مكانه، إلا أنك ستغفر لأمك المجنونة أنها انتزعت القميص من دولابك، حيث يفترض به أن يكون، وخبأته بين قمصانها، أريد لثيابي أن تتخضب برائحة جلدك، يا ولدي.

عدا القميص والرجل العنكبوت، فأنا لم ألمس شيئًا. غرفتك مرتّبةٌ ونظيفة، شرشفُ سريرك البحري، القواربُ في ستائرك، النجومُ التي ألصقناها على السقف لكي تتحول غرفتك إلى سماء، أشرطتك المفضلة وأغانيك، كل شيءٍ في مكانه يا ولدي. أبوك يعتقد بأن من الحكمةِ أن أتخلى عن أغراضك، لكي يصبح

تجاوزك أسهل. أبوك ما زال يخطئ في فهمي، فأنا لا أريد تجاوزك ولو أدى بي ذلك إلى ألفِ ميتةٍ أخرى.

بعد ستةِ أيام، سيكون قد مضى عليك أربع سنواتٍ في الموت، وخمسةٍ في الحياة. وسأكونُ أنا قد مت لأجلك مرة أخرى، وربما هذه المرة سأتلامس معك، في غياهبِ الظلمة، سأعثرُ عليك ولن أعودْ. إنّ مجرّد التفكير بك يجعل موتي أكثرَ إغراءً، فهذا العالم نتنٌ يا ولدي، وزمنه رديء، وأنا أستوحشُ في غيابك، ورائحتك آخذة بالتبدد من قميصك يا حبيبي.

لقد أخطأتُ بحقك يا ولدي، وكان خطئي الأكبر أنني أنجبتك لأسباب أنانيةٍ وشائهة، أنجبتك ليس رغبةً فيك بقدرِ ما هي رغبة بجعل حياتي الفارغة أسهل وأخف وطأة. أنجبتك لأنني كنتُ بائسة وجبانة، جبانة بالقدر الذي ينبغي لكي أتخذ قراراً تعسفياً هكذا، بحقك يا ولدي، دون أن أكون خليقة بالأمر.

أنجبتك بعد سنتين من المحاولات، كنتُ خلالهما عرضة لعبثِ الأطباء وصنوف الأدوية، هرمونات وأبر وأقراص. بمجردِ ما أخبرني الأطباء بأن حبلي بك لن يكون أمراً يسيراً، رغبتُ فيه أكثر. ترهلتُ وتساقط شعري وأصبحت أعصابي أكثر حدة، وفي المقابل أصبح والدك أكثر لطفاً. أعترف بأن الأمر أعجبني، أعجبني الاهتمام الذي يوليه لي، وأعجبني أن أجد ما أحدثه عنه، كنت تلك الجغرافيا المشتركة التي افتعلناها معاً لكي نداري زيف هذا الزواج. أردناك أن تأتي، يا ولدي، لكي تردم الصدع الذي امتد بيننا. حملناك فوق طاقتك، طالبناك بأن ترقع شاسع الفراغ، أن تكون موضوعنا المفضل، وشغلنا الشاغل، ولغتنا المشتركة البكماء. أردنا شيئا نتحدّث عنه، فكانت النتيجة أننا أتينا بإنسان إلى هذا العالم، وكأننا جديريْن بالأمر!

إنني أتساءل كم طفلا زجّ به في هذا العالم بهذا الشكل المجحف؟ كل الأطفال على الأرجح، أليس كذلك؟

خضعتُ لسنتين من العلاج، كلما أخضعتُ جسدي لمزيد من التلاعب كلما صارت علاقتي بوالدك أفضل، كنت أقايضُ صحتي بكلمات أتداولها معه، وظننتُ وقتها بأنني سعيدة. حبلتُ بك بعد مرور السنتين، ممعنةً في جعل هذا الحبل، هدف حياتي الحق! طوال تسعة أشهر، لم أكن لأغادر سريري إلا لماماً، ولا لأقبل بأن أخوض في حديثٍ غيرك، أبحث عن أسماء الأولاد والبنات في مواقع الانترنت وفي الكتب، وأذهب إلى السوق لأشتري البيجامات القطنية الصغيرة، وأرتبها في الدولاب، وأختارُ السرير الخشبي الهزاز بتلك الستارة الشيفونية التي تظلله، كنتُ أتصرف معك كما لو كنت لعبتي، اللعبة التي انتظرتها طوال عمري، الكائن الحي والحقيقي الذي قدّ من لحمي ودمي لكي يسعني أن أغيّر له حفاظه وبيجامته وأجرّه في عربة الأطفال في السوق متباهية به، شيءٌ واحد فاتني أن أخطط له، أو أفكر به، الشيء الوحيد الذي كان يفترضُ أن أفكر به: الأمومة! مثل الجميع ظننتُ بأن الأمومة هي شيءٌ مجاني يوهبُ للأنثى بمجيء الطفل. هذا لم يحدث معي، لقد أردت أن أستمتع بك وحسب، ولم يخطر لي أنني سأكون مسئولة عن حياتك، وعن موتك أيضاً.

لم تكن أمومتي تكفيك يا ولدي، إنني أدركُ ذلك الآن، وأعضّ على أصابعي، وأبكي دموعًا من زجاج. لم تكن أمومتي على قدرِ ما ينبغي، ولم تكن لتهبك ما أنت بحاجته، كنتَ طفلاً حزينًا، هزيلاً، مريضًا، جائعًا إلى الحُب، وانتهى بك الأمر لأن تموتَ سريعًا.

هل ترى ماذا حلّ بأمك من بعدك يا ولدي؟ إنني أموتُ في شهقاتي، وعندما أموتُ فعلاً، عندما أموت حقاً.. سأضم روحك إلى روحي ولن أدعك تفلت، سأكونُ الأم التي تريدها، سـأكفّرُ عن عقوقي يا ولدي وأهبك عناقاً أبدياً، أنا أمك الجبانة التي لم تكن لتكفيك في حياتك، سأكفيك في موتك يا عزيز، سأفيضُ عن حاجتك، سأهرعُ إليك وأعصرُك بين أضلاعي، تعال إلى أمك يا عزيز! تعال إليّ فقد جفت عروقي وما عدتُ أطيق هذا العالم، تعال!

11 أبريل 2010

الساعة 4:53 ص

تستحيلُ الكتابةُ عندما أجابهُ ذاكرتي جرحاً لجرح.

بكيتُ حتى أشرقت الشمس، ثم سمعتُ صوت باب الشقة يُفتح، لقد عادَ عدنان، ونام من فوره، بدشداشته البيضاء، على أول أريكةٍ صادفته في غرفة الجلوس. إن زوجي حزين، وبقدر ما أشعر بالخذلانِ ومرارة التخلي، بقدر ما يؤلمني أن أراه هكذا، أرحتُ رأسي على زجاج النافذة، أطالع الشروق، وأنا أشعر بقلبي يغوصُ في الفراغ، ورتّلتُ: يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر! نحنُ أسرةٌ منكوبة وصدعها فادح، ولا أعرف كيف أتصرف في مثل هذه الأوقات إلا بالكتابة. وجهي في المرآة يخبرني بأنني بكيتُ طوفاناً، لسبب ما ازرقّ وجهي، وانطفأت عينيّ، ونحل جسدي. كل شيء فيّ يوحي بالرحيل الوشيك، لقد أصبحتُ موتي الخاص![5]

للمرّة الأولى منذ سنواتٍ، أحسُّ بالحاجة إلى النوم، هناك، على نفس الأريكةِ، ملتصقةً به، متوسدةً ذراعه، متشبثةً بملابسه، تحت بطانيةٍ سميكةٍ ودافئة، أشتهي النوم إلى جانبه، وفيما أنا أعلنُ عن حاجتي إلى النوْم، فأنا أعلنُ - بدون قصدٍ - اعترافي بالحياة، أو لنقل، إعجابي بالحياة بكل أبعادها، حتى تلك اللا واعية منها، حتى النوم، تحت بطانية سميكة، إلى جانب زوجي، مثل أي زوجة طبيعية إن جاز التعبير.. وأنا، رغم الغبش الذي

يغشي وعيي، ورغم شهوة النوم الطاغية، أدركُ بأنني في خطر، بأن أفكاري تزيحني خارج الخطة، خطة الاختباء فـــي الغرفـةِ حتى تاريخه.

أريد أن أخرج إلى العالم وأجرب الحيــاة بشــكلٍ طفيــف وبدائي وبسيط، أن أجرّب النوم، الموت لم يعد مقلقاً لسببٍ مــا، وعدنان، رغم كل الصّدوع المترامية منذ قلبــي وحتــى قلبــه، يصبحُ أكثر ألفة وقابلية للحب في خضم هكذا أفكار، محايــدة، بيضاء..

سأدعُ القلم الآن، ولأول مرة منذ أربــع ســنوات، ســوف أنصتُ للصوتِ البدائيّ المنبثقِ من باطني، الصوتُ الذي يقــول لي أن أخطو خارج غرفة النوم، نحو صالةِ الجلــوس، وأتمــدّد على الأريكة إياها، بجانب زوجي إياه..

11 أبريل 2010

الساعة 9:14 صباحاً

أعتقدُ بأنّ الموتَ مثلكَ

طويلٌ، شاحبٌ ومنتصبٌ مثلكَ

عيناهُ بحريّتان

بعيدتانِ مثل عينيكَ

ومثل شفتيكَ شفتاهُ

مضمومتانِ من فرطِ الوجع

كارين بويه.

جرّبتُ الموت لأول مرة بسبب مرور الكهرباء في جسدي. كان ذلك في ذكرى وفاة ولدي الأولى، وفي خضمّ الكآبة الزرقاء الضبابية التي أغرقت العالم، وقلبي الذي صار ثقيلاً وصدئاً كالأقفال المهجورة، والمفاتيح المتآكلة، والحكايات القديمة المؤثثة بالدموع.. أخرجتُ صوره من الألبوم، وكنتُ بصددِ أن أغرسَ قابس الضوء في فتحة الحائط، عندما علقتُ بالتيار، وأصبحتُ جسراً لتلك القوة الغريبة التي أخذت ترتشفُ روحي على مهلها، وصارت تسحبني ببطء نحو الجدار.. حتى شعرت بي أطير، خفيفة، فوق ألبومات الصوَر والشموع، أرفرفُ فوق حياتي البائسة.

كان وعيي أكثر حياداً، وقلبي أكثر خفة، وأفكاري أكثر بساطة، وأذكر أنني فكّرتُ: هكذا هو الأمر إذن؟ وكأنني أعرفه! وكأنه هو! وشعرتُ بأنني في وطني، الخرافة التي ما آمنتُ بها في حياتي، آمنتُ بها وأنا روحٌ شاحبة عالقة بين جدران غرفةِ الجلوس، وأذكر أنني ناديتُ، داخل قلبي: عزيز! ولكن لم يكن ثمة أحدٌ سوى روحي البيضاء المحلقة في الغرفةِ الحزينة، وأطنان الصورِ والشموع والبكاء الذي كان يفترض أن أطلقه من صدري عنيفاً، وفي حيادي ذاك، شعرتُ لوهلةٍ بأن الحزن قد تبدّد تماماً، ثمّ شعرتُ بقوة تشدني إلى جسدي الملقى على الأرض، لا أريد العودة، لا أريد الإحساس بالثقل مرة أخرى، لا أريد أن أكون امرأة مرة أخرى، لا أريد أن أكون ثكلى مرة أخرى، لا أريد أن أكون مرة أخرى! كل هذه الأشياء كانت تتدافع داخل رأسي، ولكن تلك الطاقة الجبارة التي أرادت عودتي كانت شيئا يفوق إرادتي، وشعرتُ بأن كل خلية من جسدي لزجة، ملتصقةٌ بروحي، متشبثةٌ بي بقوة غير معهودة.. ثمّ سمعتُ صوته: عائشة! عائشة! لا تموتي أنتِ أيضاً، لا تتركيني! وكان عليّ، مكرهةً، أن أعترف بذلك الجسد ثانية، وأن أفتح عينيّ.. وأن أراه، بأنفٍ محمر وأعين مذعورة وشماغه الأبيض متدلٍ على كتفيهِ، كنتُ حيّة مرة أخرى، أسمعُ وأرى، ولم يكن شعوراً جميلاً، ولفرطِ ما آلمتني العودة لم أشأ الكلام، أو النظر، أو الإحساس، أو السماع.. أردتُ أن يختفي كل شيء وأن أكون تلك الروح الخفيفة التي ترفرف فوق ألبومات الصور.

ماذا حدث لي بالضبط؟ هل متّ حقيقةً، أم تراني كنتُ أحلم؟ ولماذا كانت الأشياء بسيطة وخافتة؟ ولماذا لم أكن أحس

بالألم؟ ولماذا.. ولأول مرة منذ عامٍ، كنتُ قادرة على أن أحلّق خارجَ حقيقة وفاته؟

أغمضتُ عيني، متعللة برغبتي بالعودة إلى النوم، ولكنني أردتُ العودة إلى الموت. لقد أسعفني عدنان، راح يضغط على قلبي مراراً حتى عاد إليه النبض، لفني ببطانية وانتظرنا معاً وصول سيارة الإسعاف. عدنان يظن بأنه بطلي المنقذ.

ماذا حدث لكِ يا عائشة؟ سألني عدنان: وجدتكِ ملقاة على الأرض، فوق الصور وحولكِ شموع، كيف حدث ذلك؟ تمتمتُ بتملل: لا أدري، وأضاف: كان يمكن أن تحترقي! لو أنني تأخرتُ.. لو.. ليتكَ تأخرت!

- عائشة!

وهمستُ لنفسي: ليتني احترقتْ!

هل دار الحوارُ بيننا على هذا النحو فعلاً، أم أنني حلمتُ به؟ لقد عدتُ حيّة، وأحسّ عدنان بالانتصار والبطولة، ولأول مرة في حياتي، أحسّ بأن حياتي ليست ملكاً لي، بأنها ملكٌ لهم، زوجي، والأطباء، والأهل. هم الذين قرروا. لم أشعر بالخذلان هكذا من قبل. أردتُ أن أقول له: لماذا؟ ليس عندي شيء أرجع إليه، ولا حتى أنت! أم تراني قد قلتُ ذلك فعلاً؟ لا أتذكر الأشياء التي قلتها، أتذكر جمال الموتِ فقط، وكثافة الجسد الذي قيدت روحي إليه بسلاسل من لحمٍ وعظم. بقيتُ غاضبة لأيام، لأيام طويلة جداً، حتى اقتنع هو بأنني انتحرت.

11 أبريل 2010

الساعة 10:55 صباحاً

أخطأتُ في حياتي ثلاث مرّات. المرّة الأولى، عندما وضعت سيجارة على شِفتيّ في سطح منزل عمّي، وجرّبتُ أن أتنشق دخانها، ثم سعلتُ ورميتها. في ذلك المساء الشتوي، كنا نحاولُ - بنات عمي الثلاث وأنا - أن نجرّب التمرُّد، محبطاتٍ من ضيق العالم، ومحدودية احتمالاته، بالنسبة إلينا تحديداً، وفي بلادنا تحديداً. قلنا سنتهوّر، سنجرب الخطأ، سنجرب الاختباء في السطوح، نفث الدخان ولعب الورق، سنحاكي عالم الصبيان الذين نحسدهم كثيراً. لم تدم ثورتُنا طويلاً، سرعان ما عدنا إلى حقيقتنا البسيطة والمملة: مجرد فتيات مؤدبات ومثاليات تقريباً.

كان هذا أول وأبرزِ أخطائي، خطئي الثاني كان في تلك الليلة، عندما اتصلت ابنةُ عمي على ما يطلقُ عليه اسم (غرف الدردشة)، كان ذلك رقماً هاتفياً يعتبر بوابةً مثاليةً للمواعدة والتواصل مع أشخاص من الجنس الآخر، مجموعة من الرجال والنساء، أو الشباب والفتيات بالأحرى، الراغبين بعلاقةٍ ربما، أو بتزجية للوقت، يتّصلون بهذا الرقم وينخرطون في الأحاديث.. طبعاً كان كل شيءٍ يتم خارج معرفةِ العائلة، وكانت ابنة عمي قد أدمنت الاتصال على ذلك الرقم "السحري"، وأنا أدمنتُ النظر إليها، وسماع ضحكاتها، ورؤية الإثارة وهي تتفجر من وجهها، ولكني لم أتجرأ وأتصل قط، كتمتُ السرّ

فقط. في أحد الأيام ألقت ابنة عمي السماعة عليّ، قالت "يسألني عنكِ"، ولم أعرف عمن تتحدث، فهم كثر! وأسماؤهم بلا معنى، فلا أحد يفصح عن هويته الحقيقية، أمسكتُ بالسماعة وقلت.. ألو؟ فسمعتُ صوتاً خشناً يقول:

- مرحبا عفافْ.

أخبرته ابنة عمي بأن اسمي عفاف، كانت تلك طريقتها في السخرية من خجلي وعدم إقدامي على المغامرة. كان صوته كثاً وأجش، لا بد وأنه يدخن مائة سيجارة في اليوم، تخيلته على الناحية الثانية، عملاق الجثة وضخم الأنف ومنفوش الشاربين، ارتعبتُ وأقفلتُ السماعة في وجهه. كان هذا خطئي الثاني، مشروع تهور أُجهض في غمرة الرّعبِ والنفور.

أتساءلُ لو كان الصوت الذي سمعته يشبه صوت "عبد الحليم حافظ" أو "مايكل جاكسون" مثلاً هل كنتُ لأتمم مشروع عصياني؟ وهل امتناعي في ذلك اليوم وسط قهقهة ابنة عمي يجعلني فاضلة، أم جبانة؟

جلتُ ذاكرتي مراراً بحثاً عن أخطاء أخرى، كلّ ما استطعت العثور عليه هو تلك المرّة اليتيمة التي خبأتُ فيها قلم أحمر الشفاه في حقيبتي، وعندما أوصلني السائق إلى الكلية، اختبأت في الحمام وصبغتُ شفتي بلونٍ ورديّ باهت، حتى اللون لم يكن ساطعًا بما يكفي لكي نعتبر تلك التجربة خطأً، ولكن عندما تعيش حياة مثيرة للرثاء، على هامش المفترض دائماً وأبدًا، تصبح تلك المغامرات التافهة والبسيطة هي الشيء الوحيد الذي يؤكد إنسانيتك.

لقد كنت بريئةً فعلاً، وبالمعنى السّيء للكلمة، المعنى الذي يفضي إلى السذاجة، وقلة الحيوية، وشيءٍ من السطحية. وبعد

محادثتين مع عدنان عبر التليفون، في فترة الخطوبة، علّق بشأني قائلاً: عائشة أنتِ خام! ولم أرُد، ولكنني فكرتُ: أنا خام؟ مثل النفط الخام؟ غير المكرّر؟ أنا الثروة في شكلها البدائي؟ هل كان يمتدحني يا ترى؟ هل كان هذا ما يريده في زوجة المستقبل، أن تكون المرأة الخام القابلة للتشكل، الطينة الطيعة بين يديه، العجينة عديمة المقاومة؟ لم يكن يبحث عن التحدّي إذن؟ هذا بديهي، وإلا لما تزوجني أنا! الأرجح أنه كان يطري على حسن تربيتي، التي أنشأتني فتاة ساذجة وقليلة الانتباه، كانت تلك خصلة نادرة، على حد زعمه، لأن "فتيات هذه الأيام" صرن "أكثر جرأة من الرجال" كما يقول! ما له الآن؟ لماذا لم ينجح هذا الرّجل في تشكيلي؟ أم أن النتيجة لم تكن مرضية؟ ربما لم تكن يداه ماهرتين إلى هذه الدرجة؟ وما له هرب وتركني، سريعاً، بمجرد أن انتبه بأنني أنام ملتصقة به، على غير العادة؟ لأنني أذكره به؟ بالفتاة الخام التي تحولت إلى مزهرية مشروخة وغير متناسقة مع هواه؟

لا يهم، حديثنا هنا لا يعنيه، إنني أحاول حصرَ أخطائي فقط.. ولا أتذكر شيئا ذا قيمة، لا شيء حتى خطيئتي الأخيرة: أمومتي.

11 أبريل 2010

الساعة 11:10 صباحاً

بعد وفاة ولدي بسنةٍ تقريباً شرعتُ في تقصّي جذور المرض، وكنتُ فعلاً امرأةً منكوبةً فضوليةً ولجوجاً مزعجةً تسأل أسئلة لا داعي لها بإجماع جميع نساء الأرض.. كلما تجاذبتُ حديثاً مع امرأة سألتها: لماذا قررتِ أن تنجبي؟ كيف توصلتِ إلى قرارٍ كهذا؟ وكنّ جمعياً يقلّبن وجوههن في السماء، وترى حدقات الأعين تحلّق يميناً، في محاولة للتذكر، ثم يساراً، في محاولة للابتكار، ولكنّهن كن غالباً يجبن باستنكار: ماذا تعنين؟ أو: الحق أنني لم أفكر في الأمر! لقد حبلتُ بعد زواجي وانتهى الأمر! أو كما قالت إحداهن: أليس هذا هو الغرض من الزواج؟ أو: أمي كانت تقول بأنها تريد أن ترى أبنائي قبل أن تموت! أو: نحن لا نقرر أن نكون أمهات، لأن الأمومة فطرة! وباسمِ الفطرة وحدها، حكمنا على أرواحٍ بريئة بالحياة، وعندما أقولُ بأننا حكمنا على الأرواح بالحياة، فأنا لا أعني هنا بأن الحياة هبةٌ حلوة، وبأننا نفعل شيئا جميلاً، عندما نمرّر وصمة الوجود إلى أجيال أخرى! ما لم نكن مدركات، أو على الأقل مقرّات، بتلك الحقيقة، بأن الحياة ليست حلوة، وبأننا لا نستطيع أن نحمي أطفالنا من أصغر فيروس، من مرض يستشري، من إعاقة، من وجهٍ دميم، من حادث مروري، من يُتمٍ، من جوعٍ، من اعتداء، من حرب.. وهذا العالم الذي نتخبط في جنباته،

مؤثث بالآلام، عامر بالمصائب، موشومٌ بالندبات على أتمّ ما يمكن.

والآن، وقبل أن أفكر بأن أزجّ في هذا الوجود روحاً إنسانية، وأتعاطى مع الأمر ببساطة لأنه - كما يقولون - غريزة وبداهة، كالأكل والجنس والموت، حريٌ بي بأن أفتش عن مبرراتٍ أكثر أصالة وحقيقية وإقناعاً، وأنا إلى الآن لم أتوصل إلى أيٍ منها، لأن عقلي يبحثُ عن أسبابٍ تتجاوز تلك التي تدفع العنزة إلى إنجاب سبع عنزاتٍ من أجل حكاية أخرى.

وهكذا.. أيها الإنسان، أيها المخايلُ قليل الحيلة، لقد أصبحت اليوم - بفضل تطورك وتفوقك - بحاجة إلى أسبابٍ للحياة، ويقع العبء الأعظم عليكِ أيتها المرأة، أيتها الأم الكونية، يا سيدة الخصب، يا أرض الميلاد، لكي تعثري على تلك الأسباب! مبروك، لقد آن الأوان لأن تتدخل الثقافة في الغريزة، لأن نسائل البداهة المزعومة الكامنة في الأشياء، إفرازات النسق الفُحولي الذي جعل المرأة فقّاسة بيض، الامبريالية الاجتماعية المهووسة في مد النفوذ من خلال التكاثر! آن الأوان لكي نسائل كل هذا، ونتساءل قليلاً: ما هي الأمومة؟

11 أبريل 2010

الساعة 12 مساءً

لقد أنجبتُ ولداً صحيحاً، كاملاً، ولكن بغير عافية.

هل يمكن ذلك؟ كنتُ أتساءل، كيف يمكن أن يعجز العالمُ عن معرفة علّته، مع كلّ المباهاةِ التي يرطنُ بها الطب الحديث؟ لقد أنجبتُ ولداً بحكمِ الشّرع/الطب الحديث صحيحاً وكاملاً، لا ينقصه شيء، ولا يعتريه مرض، إنه طفلٌ سليمٌ تماماً، ولكنه في الوقت نفسه ليس كذلك، فهو أضعفُ مما يجب، ولا يستطيع تجربة العالم، ولا يقدر على مواكبة الحياة.

في عامه الأوّل كان بالكاد يتحرك، لا يعرفُ كيف يأكل الخضار والفواكه المهروسة، ولا يرضع، وإذا رضع فإنه يتقيّأ كل شيء خلال دقائق. كان يشحبُ أمامي كل يوم، يصفرّ ويجف، وجهه ملطّخٌ بألوان العطش. في أيام يأسي كنتُ أحملُه إلى أقرب مستشفى وأطلب منهم أن يضعوا له محلولاً مغذياً، لأنه لم يتناول شيئاً منذ يومين، وكنتُ أقابل دائماً بدهشة الطاقم الطبيّ الذي لا يفهم كيف يمكن أن تغدو مهمة إطعام طفل بهذه الصعوبة، فالأطفال مفطورون على الرضاعة! يفتحون أفواههم ويلتقمون كل شيء، والأكل – كما هو مفترض – متعةٌ لهم بقدر ما هو حاجة. ولكن ولدي، ولدي أنا.. كان جائعاً على الدوام، ومع ذلك لم يكن يعرف بأنه جائع، ولم يكن يعبّر عن جوعه، ولم يكن يعرف كيف يأكل، كيف يفتح فمه ويلتقم الرضّاعة أو

الملعقة، كان يجوع وحسب. يضمُرُ ويتضاءلُ ويجفُّ ويصير شبحاً.

في عامِه الأوّل كنت أحمِله من عيادةٍ إلى أخرى، ومن طبيبٍ إلى طبيب. رأيتهم يثقبون جسده بالإبر والدبابيس ويمصّون دمه. نتائجه دائماً ضعيفة، ولكنها ليست مستحيلة. لم يكن ولداً مريضاً، ولكن بغير عافية.

أمام هزاله ومرضه وجوعه كنت أتساءلُ.. أين تبدأ أمومتي وأين تنتهي صرخاتُ ضميري، والأكيد أنني لم أكن مدركة لطبيعة الإنسان الذي سيصيره ولدي الذي نشأ في غمرة إحساس أبديٍّ بالجوع. لاحقاً عرفتُ، بأن جوع الرضيع هو أخطر أنواع الجوع، لأنه ببساطة يعني أن يعجز هذا الرضيع، بعد أن يكبر، عن الثقة في العالم، وفي أمه قبل أي شيء. عزيز لم يثق بي، بقدرتي على حمايته وإشباعه.. وقد كان محقاً في شكوكه، وإلا.. كيف مات هكذا أمامي؟

تبتلعُني غصّةٌ. أشعرُ بي محاصرة باختناقٍ أبديّ، وهذي الدموع التي تجري باتت تسحّ من فرط العادة وحدها. إن ما أقوله أليم. كل حرفٍ أكتبه هنا، كل اعترافٍ أدوّن به خيبتي وأقرّ به، بمثابة نصلِ آخر يطعنُ خاصرتي. يا لي من معجزة، أكتبُ وجسدي زاخرٌ بالأنصال! ولكن عليّ أن أمضي، هذه الكتابة، كتابةُ الحزن، هي محض ترف لمن لا وقت له، ينبغي أن أمضي في الكتابة وأن أذر سكرات ألمي جانباً.. ينبغي أن أكتبك يا عزيز.

كل ما أخبره لولدي مشبوه وعُرْضةً للوساوس. لو أخبرته بأننا سنذهب إلى محلّ الألعاب، فأنا كاذبة حتى نبلغ محل الألعاب. لو أخبرته بأن أكل السبانخ سوف يجعل عضلاته تكبر

وتتصلّب، فأنا كاذبة حتى يرى حلقة "بوباي" التي تثبت مزاعمي. لو أخبرته بأنني أحبه، فهو ينظر لي بخواء وحسب.. كل ما أفعله ناقص ومزيف، وأنا دائماً بحاجة إلى حججٍ وأدلة للبرهنة على أمومتي.

ببساطة شديدةٍ لم أكن كافية، لا أنا ولا هذا العالم، وكان ولدي غاضباً من كل شيء. مني.. أنا التي أنجبته إلى هذا المكان الكريه، ومن صحّته الهزيلة التي لا تسعفه لتجربة الحياة ومقارعة أقرانه، ومن أبيه الذي كان هارباً على الدوام.

كان عزيز عنيداً بما يتجاوز العناد. كان عنيداً بلا أسباب، أو بالأحرى، عنيداً بسبب كل شيء. الجوع الذي لازمه في بدايات حياته ترك في روحه ندوباً موغلة في العمق، وكوابيسه دائماً ما تفضح خوفه الأبديّ من مزيدٍ من الحرمان والتضوّر.

في إحدى المرّات قال لي: قصّي عليّ حكاية، قلتُ لنجرّب هذه المرة أن تقصّ عليّ أنت حكاية يا ولد. هل تستطيع؟ ليتني ما أتيتُ بهذه الفكرة، ولا اطّلعتُ على دخيلته. كما لو أنه كان ينتظر هذه البادرة، كانت الحكاية جاهزة داخل رأسه: كان يا ما كان في قديم الزمان، كان فيه شجرة، كانت الشجرة عطشانة، وكان الماء بعيداً، فماتت الشجرة. قلتُ له هذه ليست حكاية جيّدة، ينبغي أن ننقذ الشجرة، أن يأتي الولد الطيّب بخرْطومِ المياهِ وأن يروْي جفاف الأرض. عزيز لم يقتنع. لماذا؟ لأن الولد الطيّب، هذا المنقذ، هو محض كذبة.. طوال خمس سنوات كنت أحاول أن أكون الولد الطيب الذي يجيء بخرطوم المياه ويسقي الشجرة. الشجرة ماتت واقفة أمامي، وخرطوم المياه في يدي، والمياه لا تأتي.. لا تأتي أبداً.

ولدي طفلٌ مستحيل. لا يسمح لي بأن أكـون أمـه، ولا حتى صديقته، أو خادمته على أقل تقدير. أقول له أغلق الباب خلفك يقول لا. أقول له تعال نفرّش أسنانك، يقول لا. أقول له هيا نأكل الخضار، يقول لا. لقد كان باباً مقفلاً.. وهـو لمـا يتجاوز عامه الثالث، حتى صرتُ أشعر بأنه يهوى تعـذيبي وحسب.

خلال سنواته الثلاث الأولى خضع عزيز لثلاثِ عمليـات جراحيّة. كانت تلك الزائدة المسماة "اللحمية" تنبـتُ مـرة بعـد أخرى كلما اقتلعناها، الأمر الذي أسهم في ضعف شهيته وهزاله ومزاجه العكر. ثلاثُ عمليات جراحية خلال ثـلاثِ سـنوات. يقول لك الجميع بأنها إجراء جراحي روتينـي، بأنهـا عمليـة بسيطة. لا يخبرك أحد بأن الطفل الذي يتعرض إلى علاج طبي مكثف في صغره سوف يكبر وفي أغواره العميقة إحساس أبدي بالقلق.. عوضاً عن كل جلسات العلاج الطبيعي التي تعرّض لها بسبب التشوه البسيط في عنقه والذي كان يمنعه من الالتفاف إلى اليسار، وكان علاجه يتطلب أن أجبره على التمدد على الأرض، ملتفتاً صوب الجانب المؤلم، وأن أتحمل صرخاته الأليمة لمـدة ربع ساعة، وثلاث مرات في اليوم. كان يستجير بي، ويصرخُ حتى يختفي صوته، ويغيبُ أياماً.. قلتُ لنفسي بأن ما أفعله هو من أجله، من أجل أن يلتفت إلى اليسار! أي يسار وأي يمين يا عائشة؟ لقد طار الولد إلى السماء!

لم تكن تلك مشكلات صحيةٍ مستعصية، لم تكن غير قابلـة للعلاج.. كانت بسيطة، أو هكذا قال الجميـع. ولكنهـا رغـم بساطتها وابتذالها وحقارتها تراكمت على جسـده ولـم تـرحم ضآلته. تطلّبني الأمر بعد السنوات الثلاث الأولى أن أقوم بإعادة

تأهيله صحياً.. وجبة الخضار اليومية التي لا يحبها، جرعة الحديد بمذاقه الفظيع، فاتح الشهية كريه الرائحة.. لقد كانت طفولته جحيماً. خمس سنواتٍ من القلق والخوف والجوع والنقص.. حتى حطّت روحه خارج هذا العالم، تاركة خلفها ذلك الجسد الهش، الخائن، العاجز أبداً عن استيعاب الحياة ومتطلباتها.

بعد أن أتمّ عزيز عامَه الثالث، وبسبب نوبات العناد اللا متناهية التي وجدتُني مضطرةً لمجابهتها وحيدة، في ظل تقهقر الجميع، وزوجي على رأسهم.. ذهبتُ خلسة، وبدون أن أخبر أحداً، إلى طبيب نفساني، وأخبرته بأن ولدي لا يطمئنُ لي ويرفض كل ما أقدمه له. أخبرته بما قاله الأطباء، بذلك التشخيص المطاط لحالته: Failure to Thrive (فشل في النمو).. هل يمكن أن يفشل الإنسان في النمو؟ أليس النمو معطى من معطيات الحياة؟ قال لي يومها بأن الأطفال الذين يعانون من فشل النمو على مستوى فيزيائي، يعانون أيضاً ممّا سماه "الاتصال القلق" على مستوى نفسي. وراح يعيد المصطلح عليّ مراراً كما لو كان يتباهى.

وهكذا انتهى بنا الأمر إلى التحديق في بعضنا البعض، طوال الوقت. هو ينظر إلي بغضب، وأنا.. لم أكن أنظر إليه. كنت أخافُه، كان مرآةً يستنهضُ آثامي، حياته كانت في عنقي ولم أكن قادرة.. لم أكن كافية.

بلغت ذنوبي مبلغها عندما بدأت أشعر في داخلي بأنني ضحيته بقدر ما هو ضحيتي. الأمومة التي انتظرتها وكأنها الخلاص لم تمنحني إلا عذابات الضّمير، وساعاتِ النوم القليلة، والبكاءِ المتواصل، والشتائم، ومطالبات العناق التي لا تنتهي

والتي كانت تجعلني أختنق، والعناد لأبسط الأمــور وأكثرهــا بداهة.

انحسرتُ خارج أمومتي، هربتُ إلى داخلي، مثلي مثلــه.. أعني عدنان، كلانا اختبأ داخل جلده، أغلق مسامه، أطفأ روحه، وتركنا الصغير يسائل العالمَ بعينيه الكبيرتين، وكانــت أســئلته حارقة كالأسيد، تكوي كبدي، كلما رمقته - بالخطــأ - وهــو يحاول أن يزحفُ على بطنهِ مثلاً، لكي يصل إلى لعبــةٍ ملقــاةٍ على الأرض، لأعود وأدس رأسي في كتاب، أو أواصل التفرج على المسلسل التركي وألعن غياب الرومانسية من حياتي..

11 أبريل 2010

الساعة 3:06 مساءً

سيّدتي هجرت السماء وهجرت الأرض،

ونزلت إلى العالم السفلي

إنانا هجرت السماء وهجرت الأرض،

ونزلت إلى العالم السفلي

هجرت السّيادة، هجرت الملوكية

ونزلت إلى العالم السفلي

رأيتها، إنانا، وقد شدت إلى وسطها ألواح الأقدار السبعة، وعلى رأسها وضعت تاج السهول، وفي يدها الصولجان اللازوردي، رأيتها تتأهب، بحليها وبهائها، للنزول إلى العالم السفلِي. هي لم تتحدث إليّ، التفتت إليّ وأومأت، هل كانت تلك إيماءة الوعد بلقاء قريب؟ على الأقل، إكراماً لتلك الصداقة التي باتت تتخلق في هلوسات أحلامي المتقطعة، بين الورقة والأخرى، وبين الغصّةِ والأخرى؟ نمتُ بدون أن أنتبه، رأيتُ إنانا تهمٌّ بالمغادرة، ورأيتُ صحراءً كبيرةً من الحصى، ورأيتُ قصيدة المعرّي، مكتوبة بخط الثلثِ تحلق في هواء حلمي، تهدرُ في أذنيّ.. **ودّعا أيها الحفيانِ ذاك الشخص إن الوداعَ أيسر زادِ، واغسلاهُ بالدمعِ إن كان طهراً وادفناه بين الحشى**

والفؤادِ[6]. نعم، رأيت قصيدة المعري في الحلم، تحسّستُ حُروفها وشربتُ ماءها، كانت تتردّدُ في رأسي مثل أهزوجـــة، وكانـــت إنانا على بعد سبعِ خطواتٍ مني، ربما أقل أو ربما أكثر، كانت تتأهب، ستنزل إنانا إلى العالم السفلي، القمر مكتمل هذه الليلـــة، وهذا ميعادها.

استيقظتُ، لأن يداً رفيقة كانت تهزني من كتفي. كـــان عدنان، وكان ينظرُ في وجهي، ويجرؤ على التحـــدّث إلـــي، ويسألني: تغذّيتي؟ سألني، وبامتنانٍ لا حد له أجبتُ: لا! ثـــم هَمهمَ لنفسه بكلماتٍ غير مفهومةٍ، جرْسُـــها يشـــي بالســـخط والتذمر.. ربما من افتقارُ حياتي إلى النظام، إهمـــالي العـــام لصحتي وشكلي الخارجي وحتى للباقة تمشيط شعري، نسياني الغريب لضرورات الحياة من أكل ونوم واستحمام، ابتســـمت رغماً عني، قلتُ له، سآكل إذا تغديت معي! وبدا واضحاً جدًا بأنه لا يريدُ ذلك، لا يريدُ أن يجلس معـــي علـــى المائـــدة، بمناسبة جنوني الجديد، والفوضى التي أحدثها، والكتب التي ملأت الأرض والأدراج والأرفف وحتى خزانة الثياب: فلسفة الموت، الحياة الآخرة، العمليات الانتحارية، العود الأبـــدي، تناسخ الأرواح.. كل ما أنتجه الإنسان، بوحي أو بدون وحي، من أفكارٍ عن الموت وأسئلته. لقد حوّلتُ المنزل إلى ورشـــة لإنتاج العدم، وهو مع ذلك لم ينبس بشفه، لم يتذمر، لم يحتج، اكتفى بأن يهرب، بأن ينام في غرفة الجلوس ويقضي جـــل وقته خارج المنزل. ولكنه هنا الآن، وهو يبدي نوعـــاً مـــن اللطف، يسألني عن الغداء، ويبرطمُ ممتعضاً من الفوضـــى.. إنه يظهر اهتماماً ما، هل السبب أنني تسللتُ ونمتُ إلى جانبه بالأمس؟

ورغم أنه لم يرغب في قرارته بمجالستي ومحادثتي وربما مشاركتي وجبة دجاج كنتاكي التي يحمل علبتها في يده، إلا أنه تجاوز نفوره وأعدّ لنا طاولة لشخصين، ريثما أذهب أنا إلى الحمام لأغتسل، وأبدي مظهراً أكثر إنسانية. أكلنا بصمت، ولكنه لم يكن صمتاً مزعجاً، ثمّة تواطؤ خفيّ بات ينسجُ خيوطه الحريرية بيننا، لم أنظر إليه، ولا أعتقد بأنه نظر إليَّ بدوره، أكلنا الدجاج المقلي، وسلطة الملفوف، وعيدان البطاطا.. ثم تمتمَ بأن لديه عمل في الميناء، عمل لا يحتمل التأجيل! وكأنه بحاجة إلى اختراع سبب آخر لكي لا يكون موجوداً، لم أكن أمانع غيابه، ولا وجوده، ابتسمت وحسب.

لا أريد علاقة كهذه بأي حال، كل ما أريده هو أن نسلّم على بعضنا في الصبّاح، وأن نأكل معاً وجبة في اليوم، وإذا ما شعرتُ بالوحشة، فأنا أريد أن أحظى بحقي الزوجي بأن أنام مستدفئة به.

غادر عدنان وجاءت إنانا. بمجرد خروجه من المنزل تذكرتُ حلمي، الصحراء والقصيدة والربة السومرية التي تتأهب للنزول إلى الأسفل العظيم، الحياة فكرة مغرية "ولكن الموت يرفُ من فوقي" كما يقول أخيل، بقيت أمامي خمسةُ ليال.

11 أبريل 2010

الساعة 4:56 مساءً

سوف تأتي في كلّ الأحوال يا أيها الموت

فلِمَ ليس الآن؟

إنني أنتظرك وقد نفدَ صبري.

من أجلكَ أطفأتُ الأضواءَ

وفتحتُ البابَ

يا بسيطا كأعجوبة.

آنا أخماتوفا.

بعد ميتتي الأولى شرعتُ أبحثُ في الموْتِ وغياهب أسئلته. لم يكن الأمرُ فضولاً أو مغامرة، بل رغبةً محضةً ونقيّةً بأن أقترب- بقدرِ ما أستطيع- من ذلك الإحساس اللطيف والمحايد الذي ضمّني لدقيقة أو اثنتين. الرسوّ في الوطن، أو قريباً منه بما أمكن. خلال سنةٍ ملأتُ المكان بكل الكتب التي يمكن أن يكون لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالموت، واتضح سريعاً بأن الموت هو الموضوع المفضل للإنسانية، بأننا كبشرٍ يسحرنا العالم السفلي، ويفتننا تناهينا.

خرجتُ من تلك القراءات بمحصّلةٍ واحدة: الموتُ هو السبب، والفن هو النتيجة. كل إنتاج أدبيّ وجمالي كتب

بتحريضٍ صريحٍ من الموت. كــلّ الشــعراء يكتبــون مــوتهم الخاص، إما خوفاً من الرحيل أو استعجالاً له. المعرّي يقولُ بأن كرة الأرض هي محض مقبرة، وأن اللحد قد صار لحداً مراراً، وأن الرمل تحت أقدامنا هو رفات أمواتنا، المعرّي يتحدّى: سر إن استطعتَ على الهواء رويداً، لا اختيالاً على رفاتِ العبادِ![7].
مالك بن الرّيبِ كتب قصيدةً وحيدةً في رثاء نفســه، بــورخيس يقول: "الموتُ يُخضِعني على الــدوام"، جــون دون، أكثــرهم وضوحاً في أبياته كان يرتّل: "من الموت، وفي الموت، ومــن خلال الموت"، لوركا يكتبُ عــنِ المــوت الأســود، وصــخب المقابر، وتشيرازي بافيزي يقولُ: "سيجيء الموتُ وستكون لــه عيناك"، في حين أن كارين بويه تقول: "أحبّك يا موتي!"

الموت هو الصديق الأوّل لكل مشروع معرفي. أول نــصٍ فلسفي عرفه الإنسانُ كان شذرة انكسماندر، وكان عن المــوت. يقول شوبنهاور بأن الموت هو قوة الدفع الكامنة وراء التفلسف، ويقول هيدغر بأن الموت "أداة" الفلسفة، ويقولُ أفلاطــون بــأن الموت هو الوضع المثالي للتفلسف،[8] ويقول أرسطو بأن الموت يطلقُ سراح الذهن من أوضاعه الراهنة، ذهــنٌ حــرٌ.. ألــيس معرفةً صِرْف؟

كل إنتاج معرفي، أو جمالي، أو فني، أو أدبي، أو ثقــافي هو ابنٌ شرعي معلن للمخصب الأول لمخيّلة البشرية، لغريــزة الموت كما يسميها فرويد، لعذاب الزوال كما يســميه ريكلــه، للوعي بهشاشة الوجود كما يقول يسبرز، وغيرهم وغيرهم..

يتساءل تولستوي: أي حقيقة يمكن أن توجد إذا كان هنــاك موت؟ ولكن السؤال الحقيقي هو: أي حقيقةٍ يمكن أن توجد لو لم يكن هناك موت؟ الموتُ هو المحفز الفعلي لكل غرائز البقــاء،

وأحلام الخلود، متجليةً في جموع علومنا وفنوننا وكل ما حققته البشرية منذ بداية وعيها بوجودها، وإدراكها له.

نحن ندينُ للموتِ بكل اختراع علمـــي، وشـــذرة فلســـفية، ورواية جميلة، وأغنية شجية. ندينُ للموت بالكهرباء، ووحدات التكييف، ومدينة أفلاطون، وروايات دويستوفيسكي، وجداريـــة درويش.. لا معنى للحياة بدون نصفها السفلي، بدون "قوة العدم القاهرة" كما يسميها أخيل، يقول هيغل: إن القمة التـــي ينبغـــي تجاوزها هي الموت! ولكن لماذا - بحق الله - سأرغب بتجاوز الوطن الوحيد الذي حظيت به طوال حياتي؟

فويرباخ يقول بأن الموتُ يجعل الإنسان أكثر محبـــة، لأن إدراك المرء لفنائه يجعله يتخلى عن هوسه بوجوده، ويذوبُ في الأسمى، في حب الآخرين.[9]

أصبح لدينا الآن سبب جديد للرغبة بـــالموتِ علـــى أقـــل تقدير، وللانتحار على أقصى تقدير، فبالإضافة إلـــى الضـــعفِ والجبنِ والرغبةِ بالهربِ واستحالةِ الحياةِ وكلّ تلـــك الأســـباب، يُمكنُ أن يعثرَ المرءُ على سببٍ جديد للانتحار، ســـببٌ اســـمه الحُب؟ تراه السبب الذي جعل نيتشه يحاول الانتحار ثلاثاً، باحثاً عن "الموت الطوعي الذي يجيء إليّ لأني أطلبه"؟ ألـــيس هـــو السبب الذي جعل فيرجينيا وولف تملأ جيوبها بالحجارة وتغرق نفسها في النهر، لكي تهب لزوجها حياة حرة من قيود مرضها؟ "فلا أحد يعيش لذاته، ولا أحد يموت لذاته أيضاً"[10]

تراني لو مُتُ هذه المرة، هل سيكون عدنان ممتناً لي؟ وإذا كان موتي هو من أجل عدنان، فلمن تكون حياتي؟ لأمي؟ لأختيّ السياميتين الثرثارتين؟ لأخي المنهمك بحفظ الأربعين نووية؟ أم أنها ستكون لي؟ هل يمكن أن تكون حياتي لي؟ هل توجد خرافة

كهذه علي وجه البسيطة؟ أن يعيش المرء لذاته، بذاته، في ذاته؟ وإذا كنتُ لا أمتلك حياتي، فهل يمكن أن أمتلك موتي؟

أنا لم أنتحر. لأن حياةً لم توهب لي، بإرادتي واختياري، لا حق لي في إنهائها، بإرادتي واختياري. أنا لم أنتحر! عدنان لا يفهم ذلك، لا يعي كم هو الأمر واضحٌ وبسيط داخــل رأســي، أبسط المعادلات على الإطلاق هي معادلة الحياةِ والموت، الأمرُ يشبهُ أن تبيع شيئا لا تملكه، أنت الموشوم بحياتــك الموقوتــة، بمثابة أمين العهدة عليها. مسؤول عن الحفاظ عليها، ولكنك غير مخوّل بالتصرف بها خارج أطر صلاحياتك.

أنا لم أنتحر. وبقدر ما أريــدُ أن أمــوت، فأنــا لا أريــدُ الانتحار. وأن تتبنّى موقفاً بهذا التعقيد يصبحُ للآخرين الحقّ بأن يطلقوا عليك أحكامهم الجائرة، وأن يصفوك بالجنون. عــدنان يقول: "أنت مجنونة رسمي.. الكتب طيّرت عقلكِ".

لعله على حق. الكتب جعلت عقلي يطيرُ في سماواتٍ نائية، شيء أكثر من هذه الحياة الأقل من كافية، شيءٌ أكثر من هــذا اللا شيء الذي أفني فيه عمري. ليس ثمة ما يُغري بالحياة، أنا أعترف، واعترافٌ كهذا من شأنه أن يفزع بلادًا بكاملها، وليس عدنان فقط.

عدنان يخافُ من الكتب أكثر من الألغام، فهي قادرة علــى تفجير ألف سؤالٍ في ثانية واحدة.

خلاصة القول: البلادُ مغبرة والحياةُ مقبرة، وأنا ميتةٌ منــذ زمن، وحياتي الحقيقية لم تبدأ إلا بعد أن متّ، حياتي الحقيقية لم تبدأ إلا بعد أن عرفتُ بأن لي وطنٌ خارج اللحم، خارج المادة.. بأن الروح، لحظة تعتق خارج قفص الصدر، تطفو بحيادٍ فــوق آلامها الخاصة، فكيف لا يكونُ الموتُ هو أرض ميعادي؟

11 أبريل 2010

الساعة 5:59 مساءً

كان أحد أغبى أخطائي، أنني أشركتُ عدنان بما شعرتُ به ورأيتهُ، في الثامن عشر من أبريل للعام 2008، حين أمسيتُ طافيةً فوق جسدي، جسدي الذي قتلتهُ الكهرباء.

حدّثتهُ عن الحتميةِ المطلقةِ التي استشعرتها، عن البياضِ المضيء الذي يعكسُ كل الألوان. عن الحيادِ المريح، التسامي فوق متطلبات الألمِ والمادة. عن الخفة غير المعهودة، عن السعادة الوحيدة الممكنة للإنسان، خارج كاهل اللحمِ وقيد الدّم.

حدّثتُهُ، بغباءٍ عن كلّ هذا. فاتني أن أنتبه بأن العالم يريدُ أن يبقى الأمر سراً، ينبغي أن تقبر التجربة في الصّمت، في ظلّ ثقافةِ الخوف وافتراض الأسوأ.

كان ذلك بعد ما يقارب الشهر من الثامن عشر من إبريل لذلك العام. كنا جالسيْن في أحد المطاعم، والكويتُ تبدو مغبرةً ومجدبةً من خلفِ النافذة، الصيفُ على الأبواب، الشتاء الأخير لم يمطر إلا لماماً، الحياة جافة في عروقي ومفاصلي متخشبة.

حدثته عما شعرتُ به. قلتُ له في ذلك اليوم عندما متّ، أحسستُ براحة غير معهودة، ولم يخيّل إليّ بأن هذا الكم الهائل من الراحة والسلام يمكن أن يوجد في مكان ما، لقد عرفتُ

يومها بأن الموت هو وطن الروح، بأنه المكان الذي أتينا منه قبل أن نكون، وأن عودتنا إليه ميمونة وحميدة. الحياة دائرة، يا عدنان، وهذه الدائرة عندما تكتمل، عندما تنغلق على ذاتها، تشعر بأنك في سلام، وأنا.. لم أنتمِ إلى مكانٍ قط، رغم أنني أنحدرُ من بلاد الانتماءات والمذاهب والقبائل، لم أشعر قط بالانتماء إلا لموتي الخاص.. هكذا تكلمت، مثل المسرنمة، مثل المجنونة، مثل الكاهنة، مثلي.. هكذا تكلمتُ، دون أن أنظر إليه، إلى الرّعب في عينيه.

أمسك بيديّ، عصرهما بيديه، وقال شيئا لم أتوقع أن يقوله:

- نحن لم نعد نتكلم مع بعضنا، هل هذا هو السبب؟ لقد كنتُ منشغلاً عنكِ مؤخراً. إنها غلطتي. كان من المفترض أن أتواجد في ذكرى وفاته، ولكنك تعرفين.. تعرفين بأن غيابي.. غيابي ينم عن ضعفٍ لا تجاهل، ولكنني لن أغفر لنفسي. لقد تركتكِ يومها وما كان ينبغي ذلك.

لم أكن أفهم بأي شيء.. يرطن؟ لم أكن ألومُه على شيء، كنت أشرّع قلبي على حقائقه.. فقط!

سألتهُ مندهشة:

- ماذا تقصد؟

ازدرد ريقه بصعوبةٍ، وأردفَ مبرراً:

- لا بد وأن هذا هو الأمر، لا بد وأنك كنتِ وحيدةً ويائسة، أنا لا ألومكِ، كل ما أريده هو أن نتكلم، كالأزواج، أو كالأصدقاء.. دعينا نتحدث مع بعضنا أكثر!

- ولكنني فعلتُ ذلك للتوّ!

كنتُ أنظر إليه غير مصدّقة. وكأن كلانا كان يبرطم برطانةٍ لا يفهمها الآخر ولا يفقه كلامها.

استجمع نفسه، تنفّس بعمق. بصوتٍ واثقٍ أردف قائلاً:

- لا، أنتِ لم تفعلي، كل ما قلتهِ وما سمعتهُ منكِ هو أنك أحببتِ الموت، أنك تريدينه. الفكرة الوحيدة التي تتحرك داخل رأسكِ منذ تلك الحادثة هي الموت، حتى صرنا لا نتحدث إلا عن القبور والتوابيت وأساليب الدفن عند المصريين واليونان و.. عائشة أنا تعبتُ من حديثك المتواصل عن الموت، وقراءتك التي لا تنقطع عنه، وكأنك فعلا قادرة على اكتشاف كنهه! لماذا لا تولين هذا الاهتمام للموت عندما تموتين فعلاً، وتولين شيئا من الاهتمام للحياة طالما أنكِ حيةٌ الآن..
- ولكنك يا عدنان ميّت الآن، كلنا أموات، هذه إحدى حقائقنا الدينية[11].. فلماذا نولّي كل هذا القدر من الاهتمام الزائف بما هو زائلٌ وفانٍ، عوضا عن أن نهتمّ بالحتمية الوحيدة الممكنة في هذا العالم؟
- بربك يا عائشة! يكفي هذا.. كتبك وعزلتك ستفقدك عقلك! ارحمي نفسك وارحميني، دعينا لمرّةٍ واحدة على الأقل نجلسُ في المطعم مثل زوجين طبيعيين، دعينا نتكلم كلاما عادياً، نتكلم عنا، عن حياتنا أنا وأنتِ.. عما سنفعله، عن خططنا.. عن..

نتحدث عن حياتنا، هذا ما قاله، ولكنني لا أملك شيئا واحداً أقوله عن هذا الموضوع، الحياةُ أفهومٌ غامض، ولكن الموتُ - على النقيض تماماً- بسيط وواضح، غاياته مسماة وفضائله معروفة، عندما تموتُ فأنت متيقن من موتك، لكن في الحياة،

أنت حيٌّ ولكنك ميّت! وإذا كان الموت هو دائما موت شخص آخر، فإن الحياة هي دائماً "في مكان آخر"[12]..

أشحتُ بوجهي، أرمقُ البعيد، أتملّى في شحوبِ الغبارِ المعلق في سماوات آيار، لماذا يأتي الغبارُ دائماً؟ لماذا بلادنا عارية الألوان، صحراؤها معلقة في سمائها، ترابها يطير في الفراغ، وتبدو مثل مدينة نائمة في وسط حلمٍ أبيض، باهتة ومستعصية.

شردتُ، حياتنا معاً، قال! في هذا الوطنِ الغريب، في هذه المدينة العالقة وسط الزمن، العالقة في فخ الأزمات ومشاريع التأزيم والمناوشات السياسية وزحامِ الشوارع.. عن أي شيء تراه يتكلم، ماذا تراه يقصد؟ سرحتُ بعيداً، بعيداً، في شحوبِ السماء.. وتمتمتُ بأبيات بورخيس: "الموتُ.. لا أريد سواه"، وتمنيت في تلك اللحظة لو أنه يأتي ويختطفني من بين يدي عدنان.

كان يجاهد كي يتكلم.. متوغلاً في الجرح. في ذكرى عزيز، وجهه الشاحبُ، الموجوع، الغاضب، الذي يظلل المشهد بشكلٍ لا يحتمل. زفر، شهق، ثم زفر.. أخيراً قال:

- أعرف بأن وفاته شيءٌ يصعبُ تجاوزه، والتعاطي معه، صدقيني أنا أعرف ذلك، فأنا، كما تعلمين: أبوه! ولكنك تحتكرين كل الألم لنفسك، وعندما تفعلين ذلك فأنت تحتكرين ابننا لنفسك أيضاً، أشعر وكأنني لم أكن في حياتك قط، ولا حتى في حياته..

أمّنتُ على كلامه. كانت المرة الأولى التي يتكلم فيها عدنان بلغةٍ تلامس الواقع:

- وكأن كل شيءٍ لم يكن.. وكأننا لم ننجب ولم نفقد ولداً.

ضحكتُ بعصبيةٍ، وأسهبتُ..

- كأن الحياة تضحك على قدرتنا على التصديق، كل هذه الأمور الممنوحة لنا.. الأبناء، الأصدقاء، الوطن، المال، كل شيءٍ زائل ولكننا مع ذلك، نفاجأ.. مرة، بعد مرة، بعد مرة، بالزوال! إن لدينا قابلية خرافية على أن نواصل الدهشة بسذاجة متناهية، ونعيد اجترار ذات السؤال بغباء: كيف يمكن للحياة أن تكون قاسيةً هكذا!
- ولكن الأمر قد حدث فعلاً. أنتِ وأنا وعزيز.. لقد كنا معاً، لقد كنا عائلة! ويجب أن نعترف بذلك، وأن نتعاطى مع الأمر بشكل.. صحي!
- صحي؟ هل يمكنك فعلا أن تتعاطى مع وفاة ولدك بشكل صحّي؟
- ربما، بشيء من المساعدة، وبقليل من التعاضد، لو أنك لا تغلقين أبوابك في وجهي.. لو أنك تتذكرين بأنني ما زلتُ حيا، بأنك ما زلت كذلك، عائشة! أريد أن أمضي في حياتي، أريد أن أمضي!

وضرب على الطاولة بقبضتين مضمومتين، ثم سادَ صمت. صنوفُ الأفكار الخبيثة تدافعت داخل رأسي، ووجدت نفسي أصعّرُ خدّي بسخريةٍ وأسأله:

- ما الذي تلمّح له؟ الإنجاب؟
- وما المانع؟ لقد مرّ عام..

هذا هو الأمر إذن. كل شيءٍ كان يفترض أن يصبّ هنا.. هكذا نتعاطى مع وفاة ابننا بشكل صحي؟ ننجب غيره؟ هل هذا هو المقصود بالتجاوز؟ شعرتُ بالدّماء تغلي في عروقي، ازداد الهواءُ سخونة. يداي تتعرّقان، وطفرت دمعةٌ غاضبةٌ من عينيّ.

وأخيراً صحتُ:

- هل الأمر حقاً بهذه البساطة بالنسبة لك؟ وكأنك لم تدفن بعضك في ذلك القبر؟ هل يمكنك فعلاً أن تتكلم عن التخطي والتجاوز والتعاطي مع الأمر بشكل.. ماذا كانت الكلمة؟ آه.. بشكل صحي! هل هذه مزحة غبية من طرفك أم أنك لم تكن أبوه؟
- انتبهي أرجوكِ، إنك تصرخين، الناس ينظرون.
- فلينظروا إن شاءوا! لقد مات ولدي، مات ولدي قبل عام، وأنا أيضاً كنت سأموت، لولا تدخلك أنت! وأنت قلقٌ من الناس الذين ينظرون، فلينظروا!
- ليس عدلاً، أن تكيلي عليّ بكل ذلك، فأنتِ لم تفسحي لي مكاناً في حياتك معه أصلاً، فكيف تتوقعين بأنك ستتصرفين حيال موته؟ عزيز، إنه لم يكن.. لم يكن..
- إيّاك! إياك أن تقول المزيد..

ارتجف صوتي. بدأتُ أنشج. كان زبائن المطعم يحدّقون فيّ.. وأنا أحرك إصبعي في وجه عدنان متوعدة وأردد "إياك! إياك!".. ولكنه تابع متجاهلاً إصبعي، تهديدي، الوعيدُ في عيني، ونظرات الناس، وذعر مدير المطعم، وكؤوسَ الماءِ التي بدأت تتدافع من كلِّ صوبٍ، والأيادي الكثيرة الممتدة بالمناديل وسواها. تجاهل عدنان كل شيءٍ، وأردف:

- إنه لم يكن.. لم يكن.. عزيز لم يكن سعيداً، لم يكن طفلاً سعيداً..
- إياكَ يا عدنان، إياك..

أجهشتُ، ضربتُ الطاولةَ بيدي، أطلقتُ جؤاراً وحشياً:

- إياك أن تلومني على تعاسته!

وبسرعةٍ أجاب:

- أنا لا ألومك، على العكس، كل ما أريده هو أن تكفي عن لوم نفسك، وعن قتلِ نفسك أيضاً..
- أنا لم أقتل نفسي!
- حتى لو سلّمتُ بأنك لم تتعمدي الموت، فأنتِ - بأي حال - لا تعيشين إلا فيه، لقد تخلّيتِ عني منذ مدة طويلة، وأنا لم أتذمر، لسنة كاملة تركتك وحزنك، ولكن الوقت قد حان يا عائشة، لكي نرغب بمستقبل، بحياة..
- ولدٌ جديد؟ ولدٌ تعيسٌ ومعلولٌ جديد أزجّ به في هذه الحياة مرّة ثانية، وكأننا ما أخطأنا في حق عزيز بما يكفي لكي نكرّر الأمر في حق آخر؟
- ليس شرطاً أن يكون مثله، ربما..

وبإحساسٍ عارمٍ بالمرارةِ، قلتُ ساخرة:

- ربّما يُحالفنا الحظ؟
- إن شئت قولها بهذه الصورة.. هذه المرة سنكون مؤهلين أكثر، لديكِ خبرة أمومة لخمس سنوات ويمكنك أن تتعاطى مع ابن جديد بـ... بتوتر أقل؟ بثقة أكبر بقدرتك؟ يمكننا هذه المرة أن ننجح! أنا مستعد لفعل كل ما تريدين، كل ما يستدعي الأمر، وسأكون أكثر تواجداً يا عائشة، وإن شئتِ.. أعني، إن لم تمانعي، ربما ينفعنا أن نراجع استشارياً في شئون الـ.. زواج؟ أو، ربما فيما يخص حزنك على عزيز وكيفية التعاطي معه، وتجاوزه، وربما..
- تريد أن تأخذني إلى طبيب نفساني؟

- وما المانع يا عائشة؟ ما المانع؟ ربما يساعدكِ ذلك!
- أريد العودة إلى البيتْ.
- عائشة، أرجوكِ..
- الآنِ.

نهضتُ من مكاني، وسبقته إلى السيارة ريثما ينتهي من دفع الحساب. صمتٌ حتى سائر الأمسية، صمتٌ لأيامٍ وأيام، امتد الصمت الشاسع بيننا مسافة أربع سنوات، تخللتها كلماتٌ مبتذلة وسخيفة، وانتظارات، كثير من الانتظارات، من طرفي، ومن طرفه.. ماذا كنا ننتظر؟ أن أموت؟

11 أبريل 2010

الساعة 9:13 مساءً

سيجيء الموتُ وستكون له عيناك
سيكونُ له طعمُ التخلّي عن رذيلةٍ
سوف يشبهُ رؤيةً وجهٍ مضيء
ينبثقُ من الخيالِ
كما الإنصات لشفتينِ مغلقتينِ
سيكون.

تشيرازي بافيزي.

عجلة الوجود توشكُ أن تتم استدارتها، ولكنها تتراجعُ للمرة الثانية. هذه المرة أخذ عدنان احتياطاته، قال لن أتركك وحدكِ، سنخرجُ، سنركنُ السيارة في مكان ما، ثم سنتمشى على أقدامنا، ستشعرين بتحسن.

كنتُ يومها، بطبيعةِ الحالِ، أذوبُ دموعاً، أسمعُ انكسارات روحي، يداي تسيلان على جانبي، أنصهرُ. لي هيئةٌ مائية جداً، كما لو أنني الحزن نفسه.

هذه المرّة قرّر عدنان أن يكون أكثر شجاعة، أن يجابه الذكرى، أن يسمحَ لنفسه بالتواجد مع جُرحي، شدّ على يدي، قال سنحزنُ اليوم، سنتحدث عنه، عن عاداته، عن مسلسله

الكارتوني المفضل، عن الطريقة الطريفة التي تنقلبُ بها الحروفُ في شفتيه، عن اليوم الذي قرّر فيه أن يمشي، عن أول أيامه في الحضانة، سنتذكر الأيام العذبة التي كانت.. اليوم سوف نتذكر، ندعو، نبكي، نبتهل، ولكننا - على الأقل - سنكون معاً.. موافقة؟ هززتُ رأسي، واستسلمت ليده تلتف على خصري، يساعدني على نزول درجات السلّم، يده في يدي، وروحك يا عزيز تؤطر المشهد، في تلك الساعة كنا عائلة مرة أخرى، وكانت المرة الأولى التي أسمح فيها لعدنان بأن يكلمني عنك: هل تذكرين كيف كان متعلقاً بالمصّاصة في صغره؟ في أحد الأيام غمستِها في صلصة باربكيو حرّاقة وقلتِ له بأنها وسخة، ولكنه أخذها في يده وتسلل إلى الحمام، صعد فوق الحوض وفتح الصنبور وغسلها، ثم أعاد وضعها داخل فمه ورجع إلى لعبه دون أن ينظر إليكِ.. حيلةٌ كهذه لم تكن لتنطلي على عزيز.. كان ولداً ذكياً.

كان ذكياً والأهم أنه لم يكن يثق بما أقول، أي طفلٍ آخر يمكن أن يصدّق كذبة أمّه بأن القطة قد وسّخت مصاصته، ولكن عزيز يعرف بأنني أمّ كثيرة الكذب، لا تستدرجه إلى فعل الأشياء إلا بهذا الأسلوب.. في سن الخامسة كنت قد فقدت مصداقيتي تماماً، وفقد هو إيمانه بي، لم يكن يثق في قدرتي على حمايته، كان ذكياً ومحاصراً بذكائه.. أراد أن يفعل أشياء كثيرة، أن يتذوق كل شيء، أن يضع العالم داخل فمه، ولكنه لم يستطع أن يفعل الكثير، كان متعباً على الدوام، أتذكر الليالي التي قضيتها ساهرة في أروقة المستشفى، المَعلَم الأساسي من معالم طفولته، أتذكر يده الهزيلة الشاحبة الصفراء تمتد لتغرس في عمقها إبر المغذيات، كان يبكي دون مقاومة، كان صبوراً

ويعرف بأن عليه أن يستسلم، ربما ما كان ينبغي أن يستسلم لنا! كل تلك الليالي التي قضاها في العذاب، هل كانت في صالحه حقاً؟ كل تلك الإبر؟ العقاقير؟ الزيارات الكريهة للمشافي؟ يخيل إليّ بأنه كان يتساءل: هل هذه هي الحياة؟

دعينا لا نفكر بالأمر، قال عدنان، لنتذكر أول أيامه في الحضانة، كان صبوراً.. كان مدهشاً! لم يبكِ كالآخرين، أمسك بدمية الرجل العنكبوت في يده وفعل كل ما طلب منه، جلس في المكان المخصص له واستمع إلى الأناشيد التي رددتها المدرسة، كنتِ تراقبينه من كاميرا المراقبة، قلبكِ يتفتت.. وأنا، على السماعة، تركتُ مشاغل عملي لكي أستمع منكِ تفاصيل ذلك اليوم.

آه، بخصوص ذلك اليوم، لقد كذبتُ بشأنه، لم يكن مدهشاً كما أخبرتك، أردتُ فقط أن أشعرك بتفوّق ابنك لمرّة، ولكن الحقيقة أنه بكى كثيراً، بكى حتى نام في الزاوية، وأنا.. كنتُ أراقبهُ من تلك الكاميرا، وأحس بجسدي يتحجر، كنت أتساءل لماذا لا يمنحني انتصاراً هزيلاً واحداً؟ نجاحاً واحداً؟ سعادة واحدة، واحدة؟ اليوم أنا أسألُ نفسي: هل كان ذهابه إلى الحضانة لمصلحته؟ أم أنها طريقة أخرى لنجعل حياته أكثر إيلاماً؟ يبدو أننا قد طالبناه بالكثير وهو بالكاد تجاوز العامين، أم تراني أردتُ أن أتخلص منه ولو لساعة، أن ألقي بالعبء على آخرين ربما كانوا أكثر قدرة على تولي الأمر مني؟

لا تكوني سخيفة! ردّ عدنان بسرعة: كنتِ بحاجة إلى المساعدة فقط، عزيزٍ هو طفلكِ الأول، وأنتِ لا تعرفين الكثير. المشكلة هي أنني بتُ بعد وفاته أعرف الكثير، أعرف الكثير عن الحياة والموت.. وأعرف بأنني لم أكن كافية، لقد طالبناه

بالتفوق، بإدهاشنا وإبهاجنا وتسليتنا، بالانتصار على أقرانه، بأن يجعلنا فخوريْن، فخورين بماذا؟ بالطفل الذي نبتت أسنانه قبل شهره السادس؟ بالطفل الذي زججنا به في حضانة، وسط أطفال بكّائين وغرباء، وطالبناه بأن لا يبكي؟ وإذا ما تصرف على سجيته، على طبيعته، على طفولته، شعرنا بالخيبة والخلان؟

دعينا لا نخوضُ في هذا الأمر، من الطبيعي أن يبكي، لو لم يبكِ لما كان طبيعياً، ولكنّه أحبّ الحضانة لاحقاً، صحيح؟ هل تتذكرين كل تلك الأيام التي عاد فيها من الحضانة ممسكاً بلوحةٍ ساهم في تلوينها؟ هل تتذكرين براعته في حفظ الحروفِ والأرقامِ والأشكالِ والألوان؟

أزفرُ: فعلاً، كان ذكياً، كان ذكاءه الاستثنائيّ على حساب بنيته الجسدية، كان يفكر على الدوام، أحس بذلك، حتى أنه كان عندما ينام، ينامُ جالساً. لم يكن يستطيع الاسترخاء، ومع ذلك كان لديه هاجسًا واحدًا، أن يكون كالرجل العنكبوت، وأن يتسلق الجدران ويقفز بين المباني، لقد أراد أن يحس بالقدرة والبطولة، ألم نطالبه بذلك بأي حال؟ كان يتشبث بدمية الرجل العنكبوت على الدوام، العضو الرابع في العائلة، يرافقنا في السرير، على طاولة الطعام، في السيارة، في المدرسة.. كان عزيز يؤمنُ بأنه يمده بالقوة، بأنه في مأمنٍ طالما أن الرجل العنكبوت معه! في إحدى المرات ارتفعت درجة حرارته كثيراً، أخذناه إلى المستشفى وكانت الساعة تجاوزت الثانية صباحاً، وهناك، عرّوه من ثيابه وبدا شاحباً وهزيلاً بعظام ناتئة وحزينة.. ثم وضعوا على جسده الأصفر الهشّ كمادات الماء الباردة وأخذ بالبكاء، وفي غمرة بكائه، وأنا ممسكةٌ به من يديه تطفرُ الدّموع من عيني وأشعر بالعجز والمرارة، سألني عن الرجل العنكبوت.

أخرجته من حقيبته فأمسك به بيديه، ضمّه إلى صدره وواصل البكاء.. كان يظن بأنه سيتمكن من تحمل كمّادات الصقيع على جسده المحموم على نحو أفضل بوجود صديقه الوحيد الذي حصل على ثقته.. آه يا قلبي، بقدر ما أردت طفلاً بقدر ما قتلني ذلك.

لقد حاولتِ، قال عدنان، لا تقسي على نفسك، لقد أردت الأفضل له دائماً، اخترتِ له أفضل المدارس، أفضل الأطباء، أفضل الأفضل، ماذا يسعكِ أن تفعلي أكثر من ذلك؟

لا أدري، لقد قاومت طبيعتي، لقد كان حبلا قسرياً، ربما كان يفترض أن ننتظر سنوات أخرى، ربما كان الأمر ليحدث طبيعياً لو أننا تحلينا بالصبر؟

لا تكوني سخيفة، لم يكن ثمة سبيل آخر، لقد أردْنا ذريةً ولم يكن جسدك مهيئًا لها.. تذكرين ماذا أطلقت جدّتي على حبلك؟ طبعاً أذكر.. جدتك قالت بأن بعض النساء لا يحبلن إلا مرة واحدة كل بضعة سنوات، وأن البدو يسمون هذا النوع من الحبل بـ "الحمل العزيز"، قلنا يومها بأننا إذا رزقنا بولد سنسميه عبد العزيز.. لقد أضفت فكرة الحبل المستعصي نوعاً من الشاعرية على الحقيقة، ولكن الحقيقة أن الأمومة أكثر صعوبة وأقل شاعرية، لم نكن مدركين للأمر، أردنا شيئاً يتمم المشهد، لكي تكتمل عناصر اللوحة، ولكن السعادة ليست لوحة! ليست لوحة! والأدهى أنني لا أعرف حتى اللحظة، أيهما أشد إيلامًا، ذكرى حياته، أم حقيقة موته.

دعينا لا نذكر الموت الآن، قلنا سنتذكر أيامه الحلوة.. دعينا من المستشفيات والإبر والرجل العنكبوت، لم تكن رعايته أمراً سهلاً، أعرف كثيرين أنجبوا ست أو خمس أبناء بسهولةٍ لا

تقارن بما جابهناه مع عزيز.. ربما هو أحسن حالاً الآن، أنا متأكد من ذلك، تذكري بأن الذين يموتون أطفالاً يحلقون في سماوات الجنة، فكري في عزيز، يحلق في سماوات الجنة، فكري بأن موته كان رحمة له.. فكري هكذا، حباً بالله، وكفي عن تعذيب نفسك هكذا.. لنأكل شيئا، ستحسين بأنك أفضل.. ثقي بي!

ذراعه التفت على ظهري، تربت عليّ.. كنتُ جسداً سحيقَ القدم من فرطِ الألم. كيف يقدر الحزن على النيل منا إلى هذه الدرجة؟ نظرتُ إليه باستجداء، وكنت ممتنة، لأنه أمضي يومه تائهاً في دروبِ الملح في وجهي، قررتُ أن أعطيه شيئا مقابل اهتمامه والنبل الذي أبداه، قررتُ أن أشاركه قضمة أو قضمتين لكي أشكره، هذا ما حدث حقا، أقسم بأن هذا ما حدث! أردت أن أشكره وحسب، لم أكن أقدر على أكل شيءٍ بأي حال، لم أكن أشتهي شيئاً، والبكاء الذي خفتَ ظاهريا كان أشبه ببالون عالق في حلقومي، أحسستُ بأن صدري على وشك أن ينفجر. ومعِ ذلك، قلت له شكرًا، ابتسمت امتناناً وقهراً، بسملتُ وقضمت قضمة من ساندويتش الشاورما، وأرسلت ناظريّ صوب البحر.. هناك، حيث احتمالات الغرق والموت في الزرقة، بدأت عوارض ميتتي الثانية.

كان الأمر في البداية مجرد تسمم غذائي، آلام تشبه لكماتٍ غير مرئية أتلقاها في بطني، شعرتُ بوجعٍ غريب، وأخذتُ في الأنين.. قال ما بكِ؟ قلتُ لا أدري، أمعائي تتقطع! شغّل محرك السيارة وانطلقنا إلى المستشفى، وكان يتساءل طوال الوقت: كيف يمكنه أن يأكل من نفس ساندويتش الشاورما بدون أن يصيبه شيء، وأسقط أنا عرضة هذا المغص الفجائي والأوجاع

التي لا تحتمل؟ كان أمراً غريباً، ولكن الأغرب هو ما حدث في المستشفى، عندما أدخلوني غرفة العمليات من أجل إجراء غسيل المعدة، الروتيني، والعادي، وأدخلوا أنبوباً في فتحة أنفــي، ثـم شعرتُ بيدٍ غريبة تقبض على عنقي، وغاصَ المكانُ في الأسود البهيمِ، وعدتُ لأطفو في الفراغ المحايد وأتأمل الذعر يتفجر في المكان، وأرى عدنان، غير مصدّق، يردّد اسمي غاضبًا، يعتقـد بأن غضبه - من مزاحي السخيف الذي هو موتي - سـيخيفني ويرغمني على العودة إلى قيدِ المادة، وسمعتُ الأطباء يقولـون أشياء عن حساسية شديدة، وغريبة، من الدواء.. وبأن حلقي قد تورّم إلى حد تعذر مرور الهواء، كان ذلك هو حبـل المشـنقة المصنوع من لحمي ودمي. أسرع الأطباء إلـى ثقـب حلقـي وإقحام أنبوبٍ للتنفس، قبل أن يحدث ذلك، كان إحساسًا بالألفـة اللا نهائية يغمُرني غمرًا، وبدأ المكان يفقد ماديّته، وصار ضوءًا وألواناً ذات بريق، وأحسستُ بالسلام الأبدي، وبأنني أتماهى مع النور وأنسجم في الغيب.. وكنتُ على وشك أن أذوب تمامًا في هذا الشكل الجديد للوجود، الشكل الذي هو الموت، كان إحساساً مريحاً وأليفاً، وآمنتُ بأنني في وطني، بأن المادة/اللحـم هـي الوجود العارض، وبأن هذا الشكل الأثيري للروح هو الحقيقة.. وأنا، كنت أصافح الحقيقة، أعانق الحقيقة، أتماهى مع الحقيقـة، أذوب في الحقيقة، كنتُ الحقيقة، حتى..

في لحظة واحدة كنت أفتح عينـي وأرى الوجـوه تبتسـم بانتصار والأيادي تتصافح مهنئة، اقترب عدنان، سألني إن كنت أعرف ما حدث، هززتُ رأسي.. وأحسست بألمٍ في بطني، وألم آخر في حنجرتي المثقوبة بالأنبوب، ولم يكن بوسعي أن أتكلم، وكان هذا أفضل ما في الأمر.. ولما نظرت في عينيه، ونظـر

بدوره إلي عيني، رأى كلانا أفكار الآخر بوضوح، كان يعرف بأنني متُ وبأن الموت قد طاب لي هذه المرة أيضا، وأنا، كنت أعرف بأنه يعرف بأنني مت وبأن الموت قد طاب لي حقاً.

11 أبريل 2010

الساعة 11:13 مساءً

هل تعلم أيها الكائن الحيّ المبتهج بحياتك إلى حدٍ سخيف بأن "قصر الحياة الذي يثير الأسى بلا انتهاء قد يكون أفضل صفاتها؟[13]" لماذا؟ لأن الموت أجمل من الحياة، فالانتشاء فيه أصلٌ، لا استثناء، ولا تحتاج الروح الحرة إلى أن تثمل، أو ترقص، أو تقرأ قصيدة جميلة حتى تزدهر وتتألق، لأنها أصلاً موجودة في النور، والنور هو كل شيء.

كانت مفاجأة بأن أعرفُ بأن أغلب الأشخاص الذين يتعرضون إلى "تجربة الموت الوشيك" أو ما يعرف بالـ near death experience يبقون الأمر سراً.. كان خطأي إذن، أنني أفشيتُ بهاء التجربة للآخرين، لأن العالم غير مهيأ لتصديق الأمر، إذ كيف يعقل أن تكون الحياة دميمة والموت جميل، في الحين الكل يقول عكس ذلك؟ نتشبث بهذا العالم الأضيق من فردة حذاء، نغرز فيه أظفارنا، نعض عليه بالنواجذ، نتعلق بأسماله متوسلين، لأننا لا نعرف غيره.

علمُ الموتِ إذن، ينتمي إلى جملة العلوم السرّانية الأخرى، إلى الغنوصية، الصوفية، الخيميائية، كل الأسرار التي يتم تداولها تحت الطاولاتِ خيفةً من عنف الجهل وسطوته.. ولكن الوقائع أكيدة اليوم: 95% من الذين جربوا الموت الوشيك يتفقون - على اختلاف عقائدهم - بأنها تجارب جميلة وحقيقية،

لم ينزع أي من هؤلاء إلى تفسير الأمر على أنه حلمٌ أو سكرةٌ أو تهاويم.. لم يكن لأي منهم شكٌ في حدوثها، في حدوث الموت وفي جماله أيضاً.

75% من هؤلاء يقولون بأنهم شعروا بأرواحهم تنفصلُ عن أجسادهم

بأن انسلاخ الروح عن اللحم جميلْ.

74% من هؤلاء يقولون بأنهم أحسّوا بأن لهم وعي وانتباه أكثر من الطبيعي

وبما يفوق المعتادْ..

لماذا؟

لأن اللحم محض تشويش لنقاء الروحْ.

76% من هؤلاء الذين ماتوا وعادوا أحسوا بالسلام والسعادة،

64% من هؤلاء رأوا نوراً..

57% من هؤلاء قالوا بأنهم قابلوا أقارب وأصدقاء متوفين،

52% منهم وصفوا الأمر على أنه "بهجة منقطعة النظير"،

33% منهم يقولون بأن "الزمن في الموت أبدي".. وكل شيء يحدث في وقتٍ واحد،

31% من هؤلاء يحصلون على معرفةٍ وفهم عميق للحياة

بعضهم قال: أسرار الكون تكشفت أمامي![14]

لا يمكن لإنسان العصر الحديث أن يشكك في إحصائياتٍ كهذه، ومع ذلك فهي مشكوك بها دائماً وأبداً. ينتظر الإنسان أن يموت حقاً حتى يعرف الموت، ولكنه لن يعرفه تماماً.. مثلما أن الحيّ لن يعرف الحياة تماماً، والموجود لن يفهم الوجود تماماً.

يقول كونفوشيوس: إننا لا نعرف أي شيءٍ عن الحياة، فكيـــف نستطيع أن نعرف شيئاً عن الموت؟

هذه مجرد أرقامٍ، والموت مجرد طلسمٍ، أو هكذا نريده أن يكون!

12 أبريل 2010
الساعة 5:42 صباحاً

"من ذا الذي يعرفُ إن كانت هذه الحياة ليست موتاً، وإن كان الموتُ لا يعدّ حياةً في العالم السفلي؟"

ليوربيدس.

قرأتُ قبل أيامٍ عن أسطورة "ناما" الرائجة لدى شعب "هوتنتوت" في جنوب أفريقيا. جاء في الأسطورة بأن القمرَ أرسل القملة لتعد الإنسان بالخلود، تقولُ رسالة القمر: "كما أموت وفي مماتي أحيا، كذلك أنت ستموت وفي مماتك تحيا".. تقولُ الحكاية بأن الأرنب البرّي قد صادف القملة في طريقها، وسمع منها الرسالة ووعد بأن يتكفل بنقلها. المفارقة هي أن الأرنب قد نسي محتوى رسالة القمر، فطالها التحريف بقوله: "كما أني أموت وفي مماتي أفنى، كذلك أنت ستموت وفي مماتك تفنى"، منذ ذلك الحين غضب القمر على الأرنب البري وضربه على شفته التي ظلت مشقوقة حتى اليوم![15]

إنني أنجرفُ بسرعةٍ مخيفةٍ صوب السؤال، أذرُ خلفي شتاتي، حياتي، وموتي، وأيمّمُ شطرَ الكتابة. هذه الكتابة، ماذا تعني؟ هذه الأسئلة؟ ماذا تعني؟ ولماذا أتركُ كل شيءٍ جانباً، بما في ذلك حقيقة زوالي، لكي أتحاور مع أسطورة؟ ومن يهتم.. في

زمن الرداءة والصدأ، من يهتم بأسطورة جنوب أفريقية عن القمل والأرنب والشفة المشقوقة؟

لماذا كان القمرُ هو صاحب الرّسالة، صاحبُ الوعد بالحياة بعد الموت؟ مع كل هذه الدلالات والمغازي التي يستنهضها القمر في وعينا الإنساني؟

أستنطقُ حدْسي، أنوثتي، وغرائزي المشدودة كأوتار. يصبحُ كل شيءٍ فجأة بلا أهمية، إلا سؤالاً عارضاً، شاذاً عن سياق العالم.. لماذا يعدنا القمر بالحياة؟

في الثقافات البائدة (هل بادت حقاً؟) كان القمرُ رمزاً للأنثى. جميع اللغاتُ القديمة تقترحُ وجود علاقةٍ بين الدوْرة الشهرية للمرأة ودورة القمر. الدورةُ الشهرية للمرأة تكون كل 28 يوم وكذلك الدورة القمرية. في الإنجليزية نجد أن كلمة Menstruation الدالة على الطمث إذا ما أرجعت إلى أصولها تعني (التغيير القمري). وفي الفرنسية، يشارُ إلى الحيض على أنه وقتُ القمر. وفي ألمانيا يطلقُ الفلاحون في بعض المناطق على فترة الطمث اسم القمر، وفي الكنغو يستعمل الأهالي كلمة واحدة للدلالة على الطمث والقمر، وكذلك في بعض مناطق الهند. كيف اتفق هؤلاء دون أن يلتقوا؟

ارتباطُ القمر بالأنثى يتمظهر في جميع الحضارات القديمة. في المثيولوجيا الإغريقية مثلاً.. كانت أرتميس هي إلهة القمر، وهي أيضاً إلهة الصيد والعذرية والحياة، الرومان القدماء سموا إلهي القمر لونا وديانا. وكانت ديانا آلهة الصيد أيضا، تستخدم الهلال قوساً وأشعة القمر سهاماً. وفي الأساطير السومرية كانت إنانا هي القمر. وفي المثيولوجيا البابلية تجلت عشتار في القمر، وهي سيدة السماوات والعالم النوراني، وسيدة عالم الموت

والعالم الأسفل، حتى السيدة مريم العذراء تحمل ألقاباً قمرية، فهي قمر الروح والقمر الخالد وقمر الكنيسة.[16]

القمر هو أحد تجليات الأنثى، واهبة الحياةِ وسيدة الموت. الأنثى إياها التي تتفجر من رحمها حيوات الكائنات، في تجليها القمري تبلغ للإنسان حقيقة الموت، والحياة بعد الموت. الأنثى التي ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بكل معاني الخصوبة والحبُ والحياة، هي ذاتها تمثل في المثيولوجيا القديمة بصفتها سيدة العالم السفلي. بصفتها سيدة عالمِ الموت. من يمتلك سرّ الحياة، لابدّ وأن يمتلك حقيقة الموت أيضاً، هل هذا أحد أسرار الأنوثة التي نجهلها؟

ماذا يعني بالنسبة لي أنا؟ ماذا تمثل لي أنوثتي؟ وما علاقتها بموتي، وميلادي، وحياتي، وخطاياي؟ هذه الأنوثة الموشومة على جسدي ليست كما يظن العالم إذن.. إنها ليست شيئاً يظهر ويفيض، بل هي شيءٌ يغوص ويغيض، كما لو أنها ماءٌ تجذبهُ مسام الأرض، عميقاً إلى العالم السفلي. الأنوثة إذن، هي بوابةُ السماء والأرض، الميلاد والموت، الأعلى والأسفل، وببساطة شديدة: ضربٌ من المعرفة.

الأنوثة هي بابٌ إلى الحدس، وبطاقة عبور إلى الغريزة، والإحساس، والإدراك الداخلي، والوعي، والترابط، وال... الأنوثة قيمة أيها العالم، ودربٌ من دروب الوعي، الأنوثة هي الماء، وهي الأرض، وهي الأثير، وهي الوسيلة الإلهية للإبقاء على تماسك الوجود، تناقضه الظاهري ولحمته الباطنية.

إنساننا القديم يعرفُ، بحدسه، بأن الأنوثة هي أقرب المفاهيم التي يملكها لفهم الحياة وتعرف الموت، الحضارات الأوائل جعلت للحياة ربة، وللموتِ ربة أيضاً.. لماذا؟ لأن الحياة

إذا ما كانت تتدفق من رحم الأنثى، إذا ما كانت الأنثى هي الكوة الكونية لتكوين العالم، فإن شرفةً تطلُّ على الوجود لا بد وأن تطل على العدم، وإن أقرب الخلائق إلى سرّ الخلق لابدّ وأن يكون أقربها إلى حقيقة الفناء.. "**فالمرأة أكثر حساً بالخفيّ والماورائي من الرجل**"[17]

هي لعنة أن تملك كل هذا القدر من الإحساس، أن تحس، في كل خلية من خلايا جسدك، بتلك الطاقة الجبارة التي تمتص إكسيرك على مهلها، قوة الفناء تقبضُ روحك مع كل نأمة، غمضة، عطسة، تكة أخرى من تكات ساعتك. أن تحس بمضيّك، أن توقن بأنك "ميّت" وبأنهم "ميتون" وبأن العالم زاخرٌ بالشاحبين الزائلين الموعودين بالعود الأبدي إلى التراب إلى الرماد إلى الغيبِ إلى بطنِ الأم مرة أخرى..

أرى العدم يحدق في كل شيء بقدر ما تتربص الأبدية بكل شيء[18]! أرى النهاية تلمع في بؤبؤ البداياتِ، أرى حتمية الموت في سرة الطفل الوليد، أرى الحياة تتدفق من جثة العصفورِ ديداناً ديدان، ولا يمر يومٌ، ولا تمر دقيقة، دون أن أمحص في قانونِ الوجود هذا، موقنةً بزوالي.. لا يمرّ يوم إلا وأنا أزداد إيماناً بموتي، بأنني مشروع موت حيّ، على عتبةِ الاكتمالْ..

أقول لك ذلك، أيها العالم، أهدهدك وأرعبك وأنا جالسةٌ على يمين النافذة، والشمس قد أشرقت، يومٌ آخر يطل على الوجود، أمواتٌ آخرون، ومواليد جدد، وكل شيءٍ يتدفق باتجاه نقيضه في توقٍ فياض إلى الانقلاب إلى الضد، كم يبدو العالم واضحًا ومفهومًا وبسيطًا هذا الصباح، في هذا اليوم الجديد.. وأنا، مطعونةٌ في خاصرة يوم جديد، مقذوفة في زيف الحياة، "مختنقة تحت ثقل أطنان من الوجود[19]"..

12 أبريل 2010

الساعة 7:30 صباحاً

"ثم مشت إنانا في طريقها إلى العالم الأسفل

وإلى جانبها مشى "تنشوبور"، رسولها

فقالت له إنانا الطاهرة:

أنت يا مصدر عوني الدائم

يا رسولي ذو الكلمات الطيبة

وناقل كلماتي الحقة:

إني لهابطة إلى العالم الأسفل

فإذا ما صرتُ في العالم الأسفل

املأ السماء صراخاً من أجلي

وفي حرم مجمع الآلهة ابكِ علي"[20]

بالأمس قالت إنانا: عائشة، يا رسولتي الطيبة، لا طاقة لكِ على حمل كلماتي، ألواحي ستتفتت بين يديكِ، صولجاني أكبر من يدك، تاجي لا يلمعُ على رأسك، يا عائشة، إني لهابطة إلى العالم السفليّ.. إني لهابطة إلى العالم السفلي! وأنتِ..

ثم أفقتُ. لماذا أفقت؟ ماذا كانت ستقول لي؟ هل كانت ستقول.. اتبعيني؟ بلغي رسالتي؟ اذهبي إلى حرم مجمع الآلهة وابكِ عليّ؟ أم تراها كانت ستقول العكس، ستقول.. أنتِ امكثي

هنا؟ اغرسي قدميك في كبدِ الأرض وأوْرقي؟ أم ربما أرادت أن تقول شيئًا آخر، مختلفٌ تمامًا، لا يخطر على بال، مثل أن تقول.. أنتِ استيقظي من نومك يا عائشة!

رأيتُ إنانا ليلة الأمس، وجهها كالقمر وفي يُسراها الأزهار وفي يمناها صولجانها الذهبي العظيم، تتهادى في مشيها نحو العالم السفلي، ظننتُ بأن النزول إلى العالم السفلي مخيف! أليس هذا ما نراه في كل أساطير سومَر وبابل؟ ولكنها كانت تتهادى، رقصٌ خفيّ يفيض من جسدها.. لم تكن قلقة، أو خائفة، لم تكن كما قرأتها في الكتاب.

مددتُ يدي وتناولته من تحت وسادتي، أعدتُ قراءة الصفحة التي توقفت عندها ليلة أمس عندما غلبني النوم، إنانا أحلامي لا تشبه إنانا الألواح ولا كتب المثيولوجيا ولا المتاحف الأركيولوجية، فهي تنزل إلى العالم السفلي كما لو أنها بصدد زيارة عائلية لأختها "أريشكيجال"، مرتديةً تاجها وحاملةً صولجانها بيد، وأقحوانٌ أبيضٌ في يدها الأخرى.

تجيء إنانا إلى مناماتي لكي تجعل الموت بسيطًا، لكي تربكُ أحلامي، تقلقلُ صرامتي، إصراري على ما أنا ماضيةٌ فيه، لماذا؟ لأنها تجعلني أشعر بلذةٍ من نوعٍ خاص، متعة أن تسافر بالزمن إلى ثلاثة آلافِ سنةٍ قبل الميلاد، وتجوبُ أور ونيبور وأوروك، تحلق إلى المعابد وبيوت الطين وأواني الفخارْ.. أحلامي جميلة، ألا يجعل ذلك الحياة جميلة أيضا؟ وإذا كانت الحياة حلوة، ولو أحيانا، ألا يجعلها ذلك جديرة بأن تعاش؟

12 أبريل 2010

الساعة 11:46 صباحاً

وأخيراً..

نجحت بأن أعيش يومًا عاديًا،

نجحتُ لأول مرة!

ما أصعب أن نبقى على قيدِ العيش! كان جسدي يقاومُ في البداية، وروحي تنتفضُ بين جوانحي، رجفةٌ طرأت على أطرافي وأنا أرى انبساط الشارع وزرقة السماء وامتداد الأرصفة، شغلتُ محرّك السيارةِ بأصابع متردّدة، ورأيتُ المكان يترامى بسخاء، احتمالاتٌ لا نهائية تعمُر أرضي، فعرفتُ بأن الحياةَ تحتاج إلى المِران، بأنّ الانسياب في تعاريجها وأنفاقها ومسالكها ليس أمرًا سهلاً، تلقائيًا، وهينًا كما يخيّل لنا، كان علي أن أتعلم كيف أعيش، فالحياة ليست معطى في تلك المعادلة، الحياة هي الناتج النهائي!

قررتُ أن آخذ الطريق إلى البحر، وبسلاسةٍ كنتُ أنسابُ في "شارع الخليج العربي" وكانت مياه الخليج فيروزية مطعّمة بالتبر. قطعتُ الشارع مرّتين، ذهاباً وإياباً، لا أسمع إلا صوتي الداخلي، وأسئلتي التي تُبْعثُ من مرقدها، وقد أمعنتُ في النظر إلى البحر حتى خيّل إلي بأنني أتنفس ماءه وأتعمّدُ فيه، لم أكن نفسي، كنتُ تلك الأمواج، وكان بوسعي أن أرى عالماً يتفتّق بين أصابعي، عالمٌ كله ماء، مياه التكوين الأولى التي ابتدأ الله منها

كل شيء، في غيبٍ أزرقٍ سرحتُ حتى صرتُ ماءً، وارتويتُ مني، أنا قطرة الماءِ الظمأى، كنتُ أرتوي وأحس بالكون يرحب بي لأول مرة، وكأن الهواء مضمّخٌ بحبٍ غير معهودٍ يغلف الكائنات، وأنا من بينها.

أوقفتُ السيارة قليلاً، ونزلتُ أمشي على رجليّ على أرصفة الواجهة، ورأيتُ الكويت تتثاءب مع طلوع الشمس، ترفلُ بثوبها الأزرق، جلستُ على المقعدِ الخشبي، وحلمتُ في يقظتي، حلمتُ بي أنزل إلى البحر وألمسُ الماء، وحلمتُ بأسماك فضية تسبحُ بين ساقيّ، وحلمتُ بي أفعل أشياء.. أشياء كثيرةً لم يخطر لي قط أن أفعلها رغم كل هذا الوقت الكثير الذي كان لديّ! لم يخطر لي يوما أن أجذب الحياة حتى أطرافها القصية، أن أتطرف في الوجود، وحزنتُ.

لشدّةِ دهشتي، سمعتُ هاتفي يرنّ، من أعمق مكانٍ في حقيبة يدي، كان عدنان. سألني: أنتِ خارجة؟ واضحٌ أنه مندهش لغياب سيارتي. أخبرتهُ بأنني خرجتُ لأتمشى قليلاً، لم يعلّق على الأمر، في العادة يطلب مني أن أخبره عن مكاني، ولكنه الآن يتركني على هواي، يدعني وشأني، وكأنه فهم بأنني أستجيب إلى صوت في داخلي أسمعه لأول مرة، ولم يكن ثمة مجالٍ لابتذال ما يحدث لي بالروتين الزوجي المُمِل، خير إن شاء الله! هذا ما قاله وأغلق الخطّ.

هل كان يبتسم في الجانب الآخر؟

لقد سمعتُ صمت ابتسامته.

أردتُ قهوة! خبطتني رائحةِ القهوة من حيث لا أدري، كان بخارها الساخن ينبثق من داخلي، أتنشقها ملء رئتي حتى أنني رحت أنظر حولي، هل ثمة من يحمل كوب قهوة بيده؟ هل ثمة

من أهداني هذه الرائحة؟ ولكنني كنت وحدي، والبحر والزرقة والأزل، قطعت البقية الباقية من شارع الخليج باتجاه أقرب مقهى، هناك اشتريتُ قهوتي، وشطيرة جبن، وكعكة شوكولاتة.. بدأت أتصرف بشكل عادي، لأول مرة منذ سنوات، وقفت أمام واجهة المقهى أتملى في الإمكانيات الكثيرة للّذة، كانت كلها أمامي طوال ذلك الوقت ولكنني لم أرها، الآن بتُّ أراها، شيء ما حدث في ذلك المنام وكشف الغشاوة عن عيني، وبدأ ريقي يسيلُ اشتهاءً، كنتُ شرهة وتواقة إلى قطعةِ رغيفٍ تذوبُ في فمي، أحتضِنها في داخلي وأحملها في دمي.

جلستُ، وحيدة على الطاولة وأكلتُ.. كما لو أنني لم أذق شيئا منذ سنين! كل قضمةٍ كانت رحلةً، سفراً بعيداً إلى واقعٍ جديد. اشتريت فطورا لعدنان، سيكون لطيفاً لو عرف بأنني ما زلتُ أتذكره بين الفينة والأخرى، عدتُ إلى البيت، على مهلي قطعت تلك الشوارع، تمليت في الأرصفة/الحساسين/الحمائم/البتونيا/الدفلى/النخيل/القطط/عمال التنظيف/إشارات المرور/إعلانات صالون التجميل المتنقل/سيارات التاكسي/البنائين/الباصات/الطائرات التي تخدش صفحة السماء. كان الوجود يتحرك في كلانيةٍ مقدّسة وكنت جزءًا من حراكه، تملكني يقينٌ لم أعرفه قبلاً، عندما أطفأتُ محرّك السّيارة، دخلتُ إلى البيت، تركت فطور عدنان على أول طاولة وعدتُ إلى غرفتي لأكتب.

هل يمكن، بعد كل هذا الألم، أن تكون الحياة ممكنةً حقاً؟

12 أبريل 2010

الساعة 1:17 ظهراً

طرق باب الغرفةِ، استأذن ودخل..

- عائشة؟

وجدني أطوّق الورقة بذراعي، منكبةً على وجهي، أكتبُ أسئلتي وأحلامي.

- شكراً على الفطور عواشة!

- العفوْ.

لابد وأنني كنتُ أنظر إليه ببلاهة، بشيءٍ من الغباء، نظرة من لا يملك أية توقعات عما يمكن أن يحدث.. هل قال عواشة؟ لم أسمعه يناديني تحببًا منذ سنوات، منذ سبع سنوات! هل كان حقاً بحاجة إلى مبادرةٍ صغيرة وبسيطة كهذه؟ كوجبة فطور أضعها له على الطاولة؟ هل كان ينتظر شيئاً كهذا؟

دخل إلى الغرفة وجلس على السرير، وبتردّدٍ سأل:

- مشغولة؟

ما الذي يحاول فعله؟ يراني منهمكةً وعوالمي الداخلية وسوادي وأحلامي و.. خطوطي الحمراء وخصوصيتي المقدسة وعزلتي وصمتي، يراني منكبةً على الأوراق أكتبُ ويسألني سؤالاً كهذا؟ ما الذي يريده؟ ولماذا يدخلُ غرفتي الآن؟

- ما بك يا عدنان؟

- لا شيء يا عائشة، لا شـــيء.. أحـــاول أن أتصـــرف بشكلٍ.. طبيعي!

المضحكُ في الأمر أن الطبيعي بالنسبة لنا هو ألا نتحدث إلا لمامًا ولأسبابٍ تحتمها الضرورة. ما كان يحدث وقتهـــا، من دخوله إلى غرفة نومنا وجلوسه على السّرير.. لم يكـــن أمراً طبيعيا على الإطلاق! أظنني ابتســـمتُ، حاولـــتُ أن لا أضحك، وفي الوقت نفسه لم أسرّ بمبادرته، كانت أكثر ممـــا أريد.

- تعاليْ.. اجلسي هنا.

وضع يده على السرير إلى جانبه.. إلى ماذا يرمي؟

امتلأ وجهي ذعراً.

- ماذا تريد يا عدنان؟

- أريد أن نتحدث، وأن تجلسي هنا.. بجانبي، وأن أمسك بيدك، إن سمحتِ لي طبعاً.

قالها بأريحية، وبابتسامةٍ حزينةٍ صادقةٍ.. لم يكن ثمة تهكم في تلك النبرة، كان يقصد ما يقول، كان يستأذنني بأن يُمســك بيدي، وأنا لم أفكر بالأمر حتى، رفضته فوراً.

- ما الذي تحاولُ فعله؟

- أسئلتك تشعرني بأنني أخطّطُ لمؤامرة ضدكِ يا عائشة.

وصمت لثوانٍ ثم أضاف بنبرةٍ منكسرة:

- أريد أن أسترجع إحساسي بكِ.

ازدردتُ ريقي، وبصعوبة سألته:

- متى كانت آخر مرة.. أحسست فيها.. أحسست بي؟

- لا أتذكر يا عائشة.

- ولا أنا..

- لماذا تحاولين إلباسي تهمة التقصير مرة أخرى؟ أنا لم أدّع أبداً بأنني زوج.. جيد لكِ، ولكنني أحاول أن أكون كذلك الآن، فلماذا ترفضين؟

- لأن الأمر لا يستحق العناء يا عدنان، بقيت ستة أيام..

احمر وجهه فجأة وانفعل:

- لا تكوني سخيفة..

- لستُ سخيفة.

- أنتِ لا تعرفين ذلك على وجه اليقين، لا أحد يعرف متى سيموت، ولا ينبغي لأحد أن يعرف شيئا كهذا.

أرحتُ خدي على ساعدي، ابتسمتُ وإحساسٌ مريرٌ يملؤني..

- أتدري؟ إذا كان من حقّي أن تكون لي أمنية أخيرة قبل أن أموت، فأنا أتمنى لو أنك تعترف، لمرة واحدة فقط، بأن ما حدث في السنوات الثلاث الماضية كان أمراً غريباً فعلاً، وبأن احتمال حدوث الأمر للمرة الرابعة ليس شذوذاً فكرياً ولا مبالغة من قبلي.

- ولكن هناك احتمال بأن تموتي في هذه الساعة، أو أموت أنا قبلكِ، أي شيءٍ ممكن الحدوث فلماذا لا تسمحين لنا بالعيش خارج فكرة الموت ولو لحظة؟

- ولكنني أسمحُ لك بذلك بطيب خاطر! اخرج من غرفتي وعش حياتك على طريقتك، ولكن أنا.. أنا وقتي قليل، وحتى.. كلامنا هذا، فيه مضيعةٌ لحياتي، أريد أن أنفق أيامي الأخيرة على طريقتي.. لذا رجاء، يا عدنان، اخرج من غرفتي لو سمحت وأتمنى لك حياة سعيدة ومديدة.

نكّس رأسهُ بيأس، لو كانت علاقتنا أمتن شعرة مما هي عليه، لشعر بأن من حقه أن يغضب ويوبخني على قلة ذوقي وطردي له، ولكنه لم يفعل.. لماذا؟

إحساسٌ داخلي غمرني بأنه يصدق بأنني سأموت بعد أيام، ربما يريد أن يقضي تلك الأيام الباقية معي؟ رأيت عيناه محمرتان، قسماته مكسوة بالوجع، وتمتم بشيءٍ لم أسمعه، فسألته:

- ماذا قلت؟
- لن أخرج.

وببلاهةٍ نظرتُ إليه، وشعرتُ بأنني لا أفهم شيئا مما يحدث. نهض من مكانه بعزم، متجهًا إلى كرسيّ المكتب، أدار الكرسيّ صوبه وجعلني في مواجهتِهِ وأنا أسدّد إليه نظرة بلهاء، ثم قبض على ساعديّ بيديه ورفعني إليه حتى وقفتُ على قدمي، ومكثنا هكذا هنيهة، واقفين متقابلين يحدّق أحدنا في الآخر وربما.. ربما كنتُ أبكي مثله؟ وفي لحظةٍ عصرني داخل أضلاعه وشعرتُ بأنني أنصهر.

هل كان يودعني؟ أوِ يودّعُ فيّ حباً وليداً لم أستشعره بيننا قبل اللحظة؟ وعبثاً.. كنتُ أحاول أنِ أتمالك نفسي، وشعرتُ بجسدي كله ينتفض، وكلما انتفضتُ أكثر كانت أضلاعه تقبضُ علي بقوة أشد، تحاصرني، مثل مهد، مثل كفن، مثل احتمالات الوجود وحتمية العدم، وارتعد جسدي مراراً حتى أخذ يهمس "شش.. شش"، وأراحِ رأسي على كتفه ويده تمسحُ على شعري و.. لوهلة استسلمتُ، لوهلة فقط، لثوانٍ يتيمةٍ هاربةٍ، ثم أخذت أنشجُ.

- لا بأس عليكِ، لا بأس عليكِ..

كان يردد.

- ابكِ يا عائشة، ابكِ.

هكذا، كان لطيفًا ودافئًا ورءومًا، ولكنّني لم أكن.

- اخرُج يا عدنان.

ارتجف جسده لصوتي. لم يكن يتوقع أن يسمع شيئا كهذا، الآن وقد نجح في انتزاعي من أوراقي، وقذفي في أحضانه.. نجح في احتواء انتفاضات جسدي الرافضة.

- اخرج يا عدنان.
- ماذا حدث؟
- اخرج الآن..
- ..
- الآن!

وانتزعتُ جسدي من قبضه أضلاعهِ وأخذت أضرب الطاولة بقبضتي، وأصرخ..

- اخرج الآن يا عدنان!
- ماذا بكِ يا.. حبيبتي؟
- لستُ حبيبتك..
- بلى، بلى يا عائشة أنتِ حبيبتي!
- أنا لم أكن حبيبتك قط، والآن.. الآن..
- أنا زوجكِ، أنتِ امرأتي! حبيبتي!
- من تظن نفسك؟ بعد كل هذه السنوات تقرر فجأة أن تجيء، وتعطي نفسك الحق بأن تحتضنني، بأن تمسك بي على هذا النحو، تعطي نفسك الحق بأن تكون رجلي!
- لا تكوني فظة يا عائشة.

- ما الذي جعلك تجيء الآن؟ طالما أنك لم تحبني طوال اثني عشرة عامًا، فلماذا تحبني الآن؟ لماذا تحبني وأنا.. أنا سأموت قريبا يا عدنان! سأموت بعد ستة أيام! اخرج يا عدنان، يا رجلي، يا زوجي، يا سبعي، يا ضبعي، يا خيبة أملي! اخرج الآن ولا ترجع.. أريد أن أكون وحيدة حتى أموت! اخرج!

اخرج! اخرج! اخرج! صرختُ وأنا أرمي الأشياء على الأرض.. القلم، الأوراق، الدباسة، المبراة، الممحاة.. ثم اتجهت إلى علب الماكياج والعطور، ثم اتجهت إلى الصور والبراويز التي تضم صور عزيز، ثم اتجهت إلى دولاب الملابس ونفضت ما فيه، ثم..

- عائشة اهدئي..
- اخرج!
- اهدئي أرجوكِ، لا تفعلي ذلك..
- اخرج!
- سأخرج ولكن اهدئي..
- اخرج ولا ترجع أبداً..
- سأخرج يا عائشة، سأخرج.
- لا أريد أن أراك!

وردّدتُها مراراً، حتى بعد أن خرج من الغرفة، ثم من الشقة، ظللتُ أصرخ.

12 أبريل 2010

الساعة 6:09 مساءً

خرج من الثقبِ الصغير في جسد عزلتي،
صار خيطاً هزيلاً وانسلّ خارج الأشياء،
هكذا إذن يكون الرحيل؟
وإذا كان هو قادرًا على أن يتبخر هكذا، وأن ينسلّ بخفةٍ من جغرافيا الفجيعة، فما بالي أنا الملقاةِ مثل لقيطةٍ بين الزجاج المكسّر، والبراويز، والصور الجريحة، والضحكاتِ المبتورةِ من أطرافها.. وأغنيات الفاجعة؟

12 أبريل 2010

الساعة 6:19 مساءً

بدأوا يتوافدون على عزلتي مذ أفصحت عن جنوني وصار حزني سافرًا، وكأنه لم يكن مرئيًا لهم طوال تلك الأعوام. رأيتهم يفدون من كل حدب وصوب، ينسلّون من فراغات الأمكنة، يجثُمون على صدر وحدتي، أمي ومريم وإسراء ومعاذ.. رأيت شقتي- جغرافيا سكوني- عرضة لاجتياحهم وتدخلاتهم، يجلسون الآن في الصالة، يتصرفون مثل حراس للصحّة وقيّمين على شئون الحياة.

لم يسمحوا لي بالعودة إلى غرفتي إلا بعد أن أقنعتهم بأنني ذاهبةٌ للنوم. ولكنني الآن أكتب.. احترامًا لميثاق الكتابة الذي قطعته عليّ. أكتبُ بروحٍ آسنة. لا أثر لعدنان، خرج من البيت واتصل من فوره على معاذ وأخبره بأن حالتي باتت تستدعي تدخلا فوريًا.. أو شيئاً من هذا القبيل، وإلا، فما الذي جعلهم يخرجون من غيابهم ويأتون؟

عندما دخلت أمي إلى البيت كنت ملقاةً على الأرض بلا حراك. عزيز.. ضحكته المكسورة في البرواز المكسور، البرواز المكسور في الكف الدامي، كل شيء اختلط، الزجاج والضحكة المكسورة والجرح في اليد.

حملوني إلى الصالة، وبدأت تتوافد علي كؤوس الماء وحبّات البنادول.. وصرتُ أسمع أُمّي تبسملُ وأخي يضع يده

على رأسي ويُتمتم بالرُّقية الشرعية. أختيّ شرعتا من فورهما في ترتيب المكان، في إعادة مفرداته إلى مكانها الصحيح.. كيف يسعهما أن تفعلا ذلك؟ كيف يمكن للمرء أن يكترث بهذا القدر إلى بضعة وسائد مرمية وكؤوس محطمة، ولا يكترث للفوضى التي تعصفُ بداخله؟ ألمي، الذي أحياه زوجي باحتضانه، يشبه قارضاً ينخرني من الداخل، أحس بي عامرة بالثقوب، والهواء يتخلل جسدي، وبكائي لا يشبه نشيج النايات..

طوال اثني عشر عاماً كنت أذوب من أجل عناقٍ كهذا.

هذه هي الحقيقة التي حاولتُ، مراراً، أن أتملّص من ثقلها.

كم هو مؤلمٌ أن أعترف بذلك الآن.. اثني عشرة عامًا وأنا أريد منه أن يكون كما كان ظهر اليوم، دافئا وحاضراً وصلب الأضلاع.

اثني عشرة عامًا وأنا أجفُّ وأنضبُ، لو أنه لم يتأخر كل هذا الوقت هل كان الأمر ليختلف؟ لقد تأخر كثيراً، ولما جاء الدفء والتوْقُ شعرتُ بأعضائي تتساقط وتتداعى، كان الحضن الدافئ بمثابة عقوبة، لماذا؟ لأنني، بعد اثنتي عشرة عامًا من العطش الصريح صار يوجعني الارتواء.

سمعتُ أمي تتكلم مع عدنان بالهاتف، تقول له الوقت غير مناسب لعودته بعد. سيذهب إلى فندق على الأرجح، لكي لا يسرب أخباري المخجلة إلى ذويه، قالت أمي بأنها لن تعود إلى بيتها، ستبيت عندي و..

وكأنهم يجيئون الساعة لكي يجعلوا مضيي أكثر صعوبة، كيف يسعه أن يفعل ذلك بي؟ كيف يسعه أن ينادي عائلتي ويضعهم خلف بابي هكذا؟ كيف أستطيع الكتابة والقراءة والسهر

والبكاء وأنا تحت مراقبتهم الدائمة؟ وإلحاحهم علي بشرب مزيد من الحليب وتلاوة المزيد من الآيات وأكل لقمة أخرى..

بعد شربةِ الماء تلك مددوني على أريكة غرفة الجلـــوس، وجلست أمي قريبة من رأسي وأخذت تمسد شعري وتردد "باسم الله عليك، باسمِ الله عليك".. ومريم تردد علي "قولي لا إلـــه إلا الله".. وأحسستُ بأنني أحتضر بين أيديهم، قال معاذ اقرئي يـــا عائشة، اقرئي ما تحفظينه من القرآن، وبدأت شفتي تلهجان: إنّك ميّتٌ وإنّهم ميّتون[21]..

12 أبريل 2010

الساعة 8:00 مساءً

أتخيّل شاهد قبري..

لو كانت قبورنا مثل قبورِ النصارى لقلتُ لهم اكتبوا:

عائشة بنت إبراهيم

"عاشت لتموت"

1978/2/15 - 2011/4/18

ماذا سيقولُ الناس لو تحقّق موتي؟ لن يقولوا شيئاً، فأنا في النهاية مجرد لا أحد، اسمٌ اعتاد أن يذكره الأقارب من حينٍ إلى حين وهم يتساءلون: ألم تحبل بعد؟ أو: هل جنّت كما يشاع؟ الأقاربُ المزعجون.. من يكترث لهم؟ الأوراق الرسمية ستقول القليل الذي بالكاد يذكر، توفيت عن عمرٍ يناهز الثالثة والثلاثين عاماً، كانت من مواليد برج الدلو، تهبطُ إلى بطن البئر فارغة، وتصعد محملة بالدّمع، البئر عالمها السفلي الذي أمضت فيه السنوات الثلاث الأخيرة من عمرها. كانت موظفة لبعض الوقت، موظفة عادية في القطاع الحكومي، في الهيئة العامة للرعاية السكنية - الشئون المالية والإدارية، كانت منسقة إدارية وكانت تجد كل شيء غبيًا ومملاً، ثم توفّي ولدها واستقالتْ. الذين اقتربوا منها كفاية وسألوها عن السبب قالت لهم: عندي

أسئلة ولا وقت لديّ. أي أسئلة؟ وأي وقت؟ تريـدُ أن تتفـرغ للقراءة وحسب. عاشت في شقةٍ صغيرة في منطقـة "السـلام" مكونة من ثلاث غرف نوم: واحدة لها، واحدة لعزيـز (رغـم موته)، وواحدة للكتب. عدنان/زوجها لا غرفة له، هو مجـرد فائض عن المشهد تتعاطى معه كلاجئ، ينام على الأريكة فـي الغالب، تؤويه بدافع الشفقة. لديها أمٌ رقيقة القلب ناعمة اليـدين وسريعة البكاء وكثيرة الصمت تجيد حياكة مفارش "الكروشيه"، وأختين: واحدة عزباء، ولكنها تفضل لفظة (عانس)، والثانيـة متزوجة، وتفضل لفظة (عاقر)، ولديها أخٌ لا يخلع طاقية رأسه إلا عند الاستحمام، له لحية طويلة ويحفظ القرآن كاملاً ويفضل لفظة (مطوّع).

يا لها من حكاية صغيرة، مختزلة، غير جديرة بالحكي!

12 أبريل 2010

الساعة 8:30 مساءً

هل خطر لهم مثلاً – بسذاجة وبحسن نيـــة- بـــأنهم هنـــا للحيلولةِ دون موتي؟ كما لو أنني لم أمت، في ذلك اليوم، أمـــام أعينهم، أسرع ميتاتي وأشدها روعاً؟

صبيحة يوم ميتتي الثالثة صدمتني سيارة وأنا واقفة بـــين أمّي ومريم، لم تصب أيهما بخدش، وأنـــا.. كســـرت كتفـــي، وساقي، واحترق جلدي في بطني وفخذي الأيمن، ونزفتُ فـــي كل شبرٍ من جسدي.. لم يظن أحدٌ بأنني سأعود من تلك الميتـــة وقد بدت نهائية ومريعة، ولكنهم هنا اليوم وكأنهم لم يتعظوا من ذلك اليومِ أو أنهم يريدون أن يكونوا بصحبتي عندما أغادر.

متُّ بحادث سيارة، كما مات عزيز، فصرتُ أكثـــر قربـــاً منه، وأكثر التصاقاً بتفاصيل ذلك اليوم.. وكأنني كنتُ قـــادرة، بقوة ألمي، أن أعيد الزمن، أن أتسمر في وسط الشـــارع، وأن أغيب عن الحياة.

حلّقتُ في سماواتِ الحيادِ مرة ثانيـــة، وأنـــا أرى البلبلـــة والذعر والألم البشري يستشري في العالم الأرضي، أتأمله بدون إحساسٍ بالخسارة. كنت مستعدةً للمضـيّ تمامًا، وكان جسدي هذه المرة مستعدًا للتخلّي عني بشكلٍ نهائي، وأخذتُ أستسلم للبياض السديمي وأطفو، نحو الأعالي، من قال بأن الموت عالمٌ سفلي؟ الموت – لعلمكم يا من تعرفون كل شيء – يوجدُ فوْق.

سُرْعان ما غابت ملامح المكان، بشكله الأرضي، ورأيتني في أرض الضوء، أحسستُ براحة، ولدهشتي لم أكن أبحث عن عزيز أو أفكر به، كما لو أن موته لم يعد يوجعني، ولكن إحساساً مدوياً هدر في داخلي بأنه.. لم يحن الوقت بعد. وحاولتُ أن أماطل وأتنصل، لم أكن أرغب بالعودة، لقد أخذت كفايتي من العالم، ولا أريد أن أتألم، ولكن الصوت في داخلي واصل الهمس الملح والحتمي "لم يحن الوقت".. وعرفتُ بأن عليّ أن أرجع.

شعرتُ بقوةٍ غريبةٍ تمتصني إلى الأرض، وعادت مفردات المكان تصير أقل هلامية وأكثر حدة، كانت مفردات المكان تغرسُ أظفارها وأنيابها في وعيي وتدْميه، وأنا أرجع إلى عالم الأشياء المسمّاة وأهجر سديم الهيولى، المكان مرة أخرى، والزمانُ.. رأيتُ جسدي مسجًى أمامي ورأيتُ كسوري، والدماء تغطيني تماماً، وفزعت.. وابتهلت لكي أبقى، ولكن الصوت في داخلي قال لي "ارجعي يا عائشة، عندك أشياء تفعلينها".. كانت رسالةً واضحةً، محدّدةً، بسيطةً، مفهومةً تمامًا، ورغم أنني لم أسمع تلك الكلمات، بقدر ما رأيتها بعين يقيني، وأحسست بها كما أحس بالفرح والحزن والحنين وأي نوعٍ آخر من المشاعر، كنتُ متأكدة من الرسالة، وعرفتُ بأن ثمة ما عليّ فعله لكي أستحق الموت، لكي أستحق كل تلك السكينة.

فتحتُ عيني بعد ثلاثة أيامٍ من الغياب، كان تأثير المخدر قد زال، وكنتُ في وحدة العناية المركزة.. وكنتُ على قيد الحياة، للمرة الثالثة، مطعونة بالعالم.

12 أبريل 2010

الساعة 9:10 مساءً

يقولُ لوركا: "**في الخامسةِ بعد الظهـــر، وضـــعَ المـــوتُ بيوضًا في الجُرح**". الساعةُ الآن تجاوزت التاسعة مساءً. أظلمت الأرض، ويبدو أن البيوض قد فقست. سأكتبُ إذن عـــن هـــذا الجرح، واليرقاتِ التي تعشش فيه.

ينبغي حرق هذه الورقة، وكل ما أنا بصدد كتابته. لمـــاذا أكتب إذن؟ لأن الاحتراق في الصمت لا يحتمل، ولم يعد بوسعي أن أقبلَ بنصف كتابة، ونصف اعتراف. أكتبُ اليوم مســـتجيبة لغواية الاعترافِ والسردِ ونداءات الكتابة. قوةٌ فوقية تهيمنُ عليّ اللحظة وتقولُ لي.. اكتبي يا عائشة، كل ما كان عبث. يجب أن تكتبي الجرح، والبيوض التي فقست فيه. يجب أن تعترفي يـــا عائشة قبل أن يفوت الأوان، يجب أن تعترفي وأن تضعفي.

أمتثلُ للصوتِ في داخلي. أمتثلُ برعبٍ لا حدّ له، وأعرف بأنني.. أكتبُ أشياء فظيعة ينبغي أن لا تقالَ، وأن لا تقرأ، وأن لا تحدث أصلاً. ولكنها حدثت، والصرخةُ في أعماقي تريـــدُ أن تتحرر.

قبل وفاة عزيز بأسبوع ذهبتُ إلى طبيبٍ نفساني، وأخذتُـــه معي، جلس على السجادة يلعبُ بمكعبات البناء، والدكتور يوثق ملاحظاته في دفتره، وأنا أراقب الاثنين. كان أشد ما أخشاه أن يخبرني الطبيب بما لا أستطيع سماعه، بأن ولدي لا يعاني من

شيء، بأنه صحيحٌ تماماً، وبأنه لا يشكو من خطبٍ ولا علــة.
كنتُ أخشى أن يعجز هذا الطبيب، مثل آخـــرين، عــن تبريــر خيبتي ومنطقة فشلي كأم.. وهو ما حدث:

- إنه ولد ذكي، قادر على التفكيــر المنطقــي، ويفهــمُ الأوامر..
- أعرف بأنه ذكي.
- إنه صحيح تماماً.

زفرتُ بضيق، وهمست بما يشبه الفحيح:

- ليس ثمة ما هو صحيح فيه.

أُخذ الدكتور بما قلتُ حتى تعثر لسانه، أضفتُ مؤكدة:

- إنه ولدٌ تعيس وينشر التعاسة حيثما حل..
- ولكن يا سيدتي..
- إن مجرد النظر إليه يؤلمني!

كيف يمكن أن تقول الأم شيئا كهذا عن ولدها؟ أن تسدّد إليه كل هذا الكم من خيبةِ الأمل؟ كل هذه الأسئلة قرأتها في وجــه الطبيب الذي حاول (وفشل في المناسبة) بــأن يســيطر علــى دهشته. كانت تلك صراحة غير معهودة، فما نراه، وما نسمعه، عن الأطفال والأمهات، ليس أقل من أقواس قزح وعــالمٌ مــن الغيوم وفراشات الربيع والسكاكر، الطفولة جنة.. أو هكذا قيل، فجنة من هي؟ الجنة ذاتها المطروحة تحت أقدام الأمهات؟ جحيمِ الفشل اليومي في تنشئة طفل سعيد، طفل صحيح؟ وما معنى أن يكون الطفل صحيحاً بأي حال، فهل يمكنُ، يا ترى، أن يكــون الطفل خطأً؟

إن الأمومة لم تخلق بداخلي إلا الإحساس بالفشل، وهناك.. عندما تلفظتُ بتلك البذاءات العاقة بحق ولدي، رفع نظره إلـــي،

ورأيتُ في عينيه أكواناً من اللا فهم، وشيءٌ من الخوف والجوع إلى أمومة حقيقية لم أكن خليقة بمنحها له.

بدأت عيناي تهمّان، خبأتُ وجهي بين يدي وأجهشتُ..

قال الدكتور معاتباً:

- أم عزيز.. هذه جلسة من أجل دراسة سلوك الطفل وقياس مؤشرات ذكائه..

وأضاف:

- جففي دموعكِ لو سمحتِ فابنك ينظر إليكِ.

وهكذا فعلت، فالتفت الدكتور نحو ولدي وناداه باسمه: يا عبدالعزيز! فنهض الصغير واقفاً، وكما لو كان يخاطب رجلاً قال له:

- هل تسمح بانتظارنا في الخارج؟ يمكنك أن تجلس مع السكرتيرة، ستعطيك المزيد من الألعاب ريثما نتكلم أنا وأمك، موافق؟

بدون أن يهز رأسه أو ينبس بحرف، أدار ظهره وخرج من الغرفة، وفيما هو يهم بإقفال الباب ثقب وجهي بنظرة جعلت قلبي يغيض في كمده. انهمرت الدموع من عيني، والدكتور ينظر إلي نظرة باردة، ينتظر أن أهدأ حتى يلقنني درسا في أسس التربية:

- إنني أعي بأنك تشعرين بالخيبة والخذلان والفشل، ولكن لا يجوز أن تقولي أشياء كهذا عن ولدك في وجوده.

- أعرفُ ذلك.

- ولا حتى في غيابه، إن أردتِ رأيي.

- أعرف.

أجبتُ وأنا أجفف دموعي. تابع الطبيب:

- كما أرى شخصياً، أنت الشخص المحتاج للفحص والمراجعة، وليس عزيز..
- ..
- المشكلة هي أنتِ يا سيدتي.
- ..
- لا خطب في ولدكِ إطلاقاً.
- ..
- ربما مشكلته الوحيدة هي..
- أنني أمه؟

صمت فجأة، وصار وجهه مصمتاً ورخامياً وبارداً.

- أم عزيز..
- عائشة.
- حسناً، يا سيّدة عائشة، ثمة ما يجب عليكِ فعله بعد ما قلتِه.. عليك أن تمضي كل دقيقة من عمركِ الباقي في مسح كلماتك من رأس ولدك، وعليك أن تزرعي في رأسه فكرة واحدة، هي أنك تحبينه.. تحبينه وحسب يا عائشة، هل تستطيعين فعل ذلك؟

أشحتُ بوجهي..

بعد خمس سنوات من الإحباط والمرارة لم أعد قادرة على الكذب.

- أعرف بأن ما أقوله مشين ولكنني..
- ولكنك ماذا يا عائشة؟
- ولكنني أتمنى لو أنني لم أنجبه.

وأخذ الطبيب مرة ثانية، صمت هنيهة ثم هم بالكلام بشيء من التردد، كما لو أنه يتسلل إلى أرضٍ خاصة منفية في أغوار لا وعيي.. سألني بحذر:

- أخبريني..
- ..
- هل تحبين نفسكِ يا عائشة؟

وكان ذلك أغرب سؤالٍ سمعته في حياتي، لدرجة أنني ضحكتُ.. ثم بكيتُ من ضحكي، ثم ضحكتُ من بكائي وهكذا..

هز الطبيب رأسه آسفاً:

- فاقد الشيء لا يعطيه.

13 أبريل 2010
الساعة 12:00 صباحاً

أتمنى لو أنني لم أنجبه؟!
أتمنى لو أنني لم أنجبه؟!
أتمنى لو أنني لم أنجبه؟!

كيف أمكنك أن تتفوهي بشيءٍ كهذا يا عائشة؟ ألا تدرين بأن الجدران لها آذان، والسماوات لها آذان، والأراضي لها آذان، والشوارع لها آذان.. ألا تدرين بأن العالم له آذان؟ الفكرة الوحيدة التي كانت تنخر لبك طوال خمس سنوات، أن تتحرري من أمومتك؟ هل نسيتي بأن الكون يسمع، وبأن الإله قادرٌ على أن يمنحك ما تريدين، أن يعتقك من أمومتك، أن يستعيد ولدك منكِ، أن يأخذه في جواره ويتركك.. هنا يا عائشة، في غرفتك الموصدة كتابوت؟

كل غنائك وجنونك وقصائدك وبكائك، وحديثك الذي لا ينقطع عن جماليات الموت وقبح الحياة، كل ما تفعليه الآن والطريقة التي تختبئين فيها خلف مقولةِ فيلسوف، أو قصيدة شاعر، أو هرطقة مجنون، لكي تبرري عدميتك وتمنطقي خبالك وقلة حيلتك؟ لماذا لا تعترفين بالأمر وحسب؟

أنتِ الجانية! أنتِ التي تمنّت حدوث الأمر، أنتِ أردتِ لهذا الأمر أن يحدث، دعوتِ بصمت.. بكل شبرٍ في جسدكِ.. بأن

تتنصلي من أمومتك، فإذا به يموت بعد أسبوعٍ من ذلك اليـــوم، فمن قتله غيرك يا عائشة؟

أنت الآن تتمنين موتك، وأنتِ التي ناديته إليك مراراً.. ثلاث مراتٍ يا عائشة، ثلاث مراتٍ تموتين، وتعودين.. تلعبين لعبة الحياة والموت، فلا أنت حية ولا أنت ميتة، لأجـــل أي شيء يا عائشة؟ هل تعتقدين حقاً بأن خطيئتك ستصبح أقـــل وطأة؟

جرحك حيٌّ يقتاتُ عليك، يلتهمك يا عائشة، يتنفس روحكِ ويشرب ماءكِ. جرحك حيٌّ يا عائشة مهما متّ ومهما ادّعيتِ.. ومهما حييتِ يا عائشة، أنتِ الجانية، والمجنـــيّ عليهـــا، أنـــت السّوط، وأنتِ الجلاد، والمحكوم عليها بالجرح الأبـــدي، أنـــت الزنزانة، وأنتِ السجين، أنتِ الرصاصةُ، وأنتِ القتيـــل، أنـــتِ القبر، وأنتِ الجثة، وأنتِ جحافل الدود في بطن الأرض.. أنتِ الجانية يا عائشة، الجانية عليكِ!

هذا تابوتك يا عائشة – أوراقك وأقلامكِ، موتي كتابةً إذن! هذه هي ميتتك القادمة.. الموت خنقاً بالكلمات؟ رمياً بالقصـــائد؟ ضرباً بالقوافي؟ ستغرقين داخل بياض الصفحةِ وتغيبين.. لـــن يفتقدكِ العالم يا عائشة، سيكون مضيّك رحمة، لزوجك وذويكِ.. كل الذين تجرينهم معك إلى نازلةِ العذاب، مـــن يقـــدر علـــى معاشرتك؟ من يطيقك؟ ومع ذلك أنتِ حية.. ما فتئت تعـــودين كلما تلامستِ مع الموتِ هناك.. تعودين غصبًا وقهرًا وكرهًـــا، لماذا تعودين؟ ما الذي يعنيه وجودك الأرضي؟ وحباً بالله.. أي قيمةٍ ستضفينها على هذا العـــالم؟ أي خيـــرٍ أي جمـــالٍ أو أي خرافة؟ أي ضرورة تجعل المشيئة الإلهية تقتضي عودتك؟ ماذا يفترض بك أن تفعلي لكي تتمّي وجودك وتستحقي رحيلك؟ مـــا

الذي يجعلك جديرة بالحياة، وآخرون منذورون للحب والعطـاء يقضون آجالهم كل يوم، كل لحظة، كل غمضة عين..

لماذا أنتِ، من بينهم، تعودين؟ أ لكي تعاقبي كفاية، مثـل الأرواح المحكوم عليها بالتناسخ الأبدي؟ ما الذي يستوجب عليك منحه، أو التخلي عنه، لكي تصبحي جديرة بموتك؟

اكتبي يا عائشة..

أليس هذا هو الشيء المنطقي الوحيد الذي تستطيعين فعله؟ أليس هذا هو الشيء الوحيد الذي خطر لك، وأنت تفكرين طوال العام الماضي، ومنذ ميتتك الثالثة.. لماذا عدتُ وماذا علـيّ أن افعل بهذه الحياة الممنوحة لي رغم أنفي؟ اكتبي إذن، يا عائشة.. كوني الرسالة المخضبة بالدم والدمع، كوني كبش الفداء، كوني القربان، كوني الحكاية يا عائشة ودعي ألمك يتفشى في جسـد العالم ويغطي غماره..

كوني الرواية يا عائشة، انتشري كما الألم في القلب، كمـا السمّ في البدن، كما النار في هشيم المحتضر! انتشري يا عائشة وليسمعكِ العالم تجأرين في جحيمكِ، انشري جرحـك للشـمس حتّى يرى الكون ضخامته وغلظته، جففي دموعك في قصـائد وخبئيها في علبِ الهدايا وامنحيها مجانيةً للعالم، اكتبي.. اكتبي يا عائشة، اكتبي الشيء الوحيد الحقيقي في حياتك، الشيء الذي يصنع حقيقتك.. فلتكتبي يا عائشة.. كـوني الأحجيـة/كـوني السؤال، كوني الألم المشاع يتسرطن في جسد الأرض وينتشـر في أثير السماء، اكتبي يا عائشة وكوني القصيدة الملغزة/كوني الأغنية الحزينة/كوني حلم البكاء يستعصي ويتعذر، اكتبي..

كوني الناي

كوني الأوتار المشدودة إلى جذع العالم

كوني شيفرة النشيجْ
كوني الربابة تبكي يا عائشة..
كوني البكاء المستحيلْ!

اكتبي يا عائشة! اكتبي لأجل موتك، وعيشي لأجله أيضاً.. استحيلي أحرفاً ترتجفُ، وقصائد غير موزونة، وأوجاعًا غير مقفّاة، كوني كما أنتِ، منتشرة في البياض الفاحش للورقةِ، انشري جسدك وثبتي أطرافه إلى صليبِ الحرف، كوني الألف، كوني اللام، كوني الميم.. أوقدي في أضلاعك جذوة الملحِ، وأطلقي جحافل بكائك الجرارة في وجه العالم، ذريها تزحف فوق العشبِ، فوق الرمل، فوق قطرانِ الشوارع.. ذريها تزحف على بطنها في الحرّ حتى يتمزق جلدها وينخلع..

كوني الطير يرقص مذبوحاً من الألمِ
كوني رقصة الطير يا عائشة
يا ذبيحة الألم
كوني حشرجة الروح في نزعها
وبقية الريش
كوني العش الفارغ
ويتامى الكتاكيت

اكتبي يا عائشة إذن، لأجل القطة التي دهست السيارة صغارها، والجراء التي انتزعت من أمها وبيعت في المتاجر، لأجل اليتامى في أوراق الجمعيات الخيرية، لأجل جثة الدوريّ في الممر المفضي إلى بوابة عزلتك، لأجل الطفولة والأمومة وما بينهما من بهاء وغثاء.. افعلي خيراً – لمرة واحدة يا عائشة – واكتبي..

كوني الغربال يفضح شوائب الإنسان

كوني المجهر يكشفُ خبث الورم وفحشه
كوني الحقيقة يا عائشة
كوني الحقيقة..
الحقيقة على مذبح الوعي
الحقيقة الأضحية
الأضحية دمٌ حلال أيها العالم
دمٌ حلال..

13 أبريل 2010

الساعة 6:00 صباحاً

كنتُ قد نمت دون أن أحسّ بشيء، روحي خفيفة وشاحبة تنفذ إلى أبعادٍ جديدة في الوجود، رأيتُ الأموات في غدوهم ورواحهم، يتسامرون ويتضاحكون فوق صحراءٍ صخرية تمتدّ أبداً، وقلتُ في نفسي سأبحث عن ولدي.. ولكن، لم أجد ولدي، بحثتُ عنه بين أكوام القش، تحت الحصى، في بيوتِ النمل، وبين غمامتينِ، ثم رأيتُ روحه ولم أر وجهه، وناديته: يا ولدي!

فتحت عيني وكان معاذ يهزّني هزاً رفيقاً، وقد ارتدى "دشداشته" وتأهب للخروج إلى الصلاة.. أذان الفجر يتفجّرُ في سماء من البنفسج.

مرّ زمن دون أن أصلي. كنتُ أصلي كيفما اتفق، أو لا أفعل، وليس ذلك من طبعي، وليس شيئاً يشبه نشأتي. كانت الصلاة دائماً موجودة وحاضرة، في أيام الشك وأيام اليقين، في أيام الإيمان وأيامِ الفراغ الفاحش، كنت أؤدي صلاتي بأيّ حال، ولكنني منذ لا أدري.. لم أعد أصلي إلا بشكل عشوائي، غير مرتب، وفارغ.

قلتُ لنفسي: سأدعو الله أن يعيد إليّ صلاتي، أريد أن أمتلئ، واقفة على سجادتي الخضراء، اللا شيء من ورائي واللا شيء من أمامي أيضاً، ولكنني بت مخضبة بالخطيئة إلى حد

الشلل، وكان جل ما أريده هو أن أختفي.. أختفي من عالمك يا الله كما لو أنني لم أكن! ولكن الخلق خلقك والعباد عبيدك.

لم يكن معاذ ليرحل قبل أن يراني أنهض وأغتسلُ، ولكنني أدرتُ وجهي وأغمضتُ عيني.

- عواشة، الصلاة!

هممتُ "نعم" آملة أن يذهب، لولا أنه بقي.

نهضتُ، وهممتُ بالوضوء، وأنا أتساءل في داخلي كيف سأصلي.. وكم مرة سأكبّر؟ هل تقبل صلاة الميت على نفسه؟

لم يتركني معاذ، بقي واقفاً يتأملني وأنا أتوضأ..

- ألن تذهب؟

- بلى..

وصمتَ برهةً قصيرة، ثم أردَف:

- كنتُ أسمع محاضرة قبل أيام.. وذكر فيها الشيخ المحاضر حديثا، ذكّرني بكِ..

- ماذا كان الحديث؟

استخرج ورقة من جيبه ووضعها على الطاولة إلى يمينه وعلق قائلاً: "سجّلته هنا"، ثم مضى.

خرجتُ من الحمام، جففت وجهي وذراعي، ارتديتُ ثوب صلاتي وهممت بأن أكبّر ثم.. غلبني الفضول، سرتُ صوب الطاولة وأمسكتُ بالورقة وقرأتُ:

"**قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:**

إذا مات ولد العبد، قال الله تعالى لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟

فيقولون: نعم،

فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟

فيقولون: نعم

فيقول: ماذا قال عبدي؟

فيقولون حمدك واسترجع،

فيقول: ابنوا لعبدي بيتا في الجنة وسمّوه بيت الحمد[22]"

13 أبريل 2010

الساعة 10:00 صباحاً

عندما بلغتُ الساعة الثامنة صباحًا، امتلأ المكان بالزحام والروائح والأصوات، وصرتُ أتنشق رائحة الزبدة والبيض المخفوق وأنا مختبئة تحت لحافي، أتظاهر بالنوم، والورقة والقلمُ بين يديّ.. آملة أن تمنحني أمي فسحة أخرى للكتابة.

دقائق وفتح باب غرفتي وصاروا يدخلون ويخرجون.. عزلتي تنتهك وأنا، بذعرٍ كافٍ، أرقبُ جهودهم الحثيثة في استخراجي من.. من القوقعة؟ من القبر؟ أصرّوا على أن يتصرفوا بشكلٍ طبيعي إلى حد الافتعال، فكانت مريم تشاكس إسراء، وكان معاذ يتبرّم ويتمتمُ لأن أمي تكثر من وضع الفلفل الأسود في البيض المخفوق، وكانوا بين كلمةٍ وأخرى.. يحاولون جذبي إلى الحديث، ما رأيكِ أنتِ يا عائشة؟ ماذا تقولين يا عائشة؟ هل تفضلين مخفوق الزبادي أم الآيس كريم (الطبيعي) الذي اخترعه الإنسان منذ البداية دسماً وثقيلاً وحلو الطعم؟ الآيس كريم طبعاً أليس كذلك عواشة! لا أعرف كيف يأكلون ذلك المخفوق ويزعمون بأنه لذيذ الطعم لمجرد أنه خيارٌ أكثر صحية؟ لماذا ينبغي أن نأخذ الخيار الصحيح دائماً يا عائشة؟ ماذا سيحدث لو أننا أخطأنا مرة، وأكلنا الآيس كريم المليء بالسعرات الحرارية وامتلأت أردافنا أرطالاً أخرى.. أي ضيرٍ سيحدث في هذا الأمر؟

كانت مريم، العجفاء مثل خيزرانة، تتبرم هكــذا! أختــي الهزيلة، دقيقة العود، مثــل نــايٍ صــغير وضــئيل، بعينيهــا الصغيرتين تحاولُ أن تجعلني أتحدث معها عن.. عن أي شيء؟ عن السعرات الحرارية؟

- التمّ المتعوس على خايب الرجا..

تمتم معاذ. التفتت مريم تسأل بحدة، بدت لي على الأقــل، مبالغ في إظهارها: ماذا تقصد يا أخ؟!

ضحك معاذ، ضحكةً مبالغٌ في إظهارها أيضــاً: أقصــد التمّت "العصاقل" على "المصاقل".. والتمــت العظــام علــى الجلود! أنت يا عود الأسنانِ تحدثين عواشة عــن الســعرات الحرارية؟ إن مجرد رؤيتك تخوضين في هذا الأمــر شــيءٌ يرفضه العقل، إنك تبدين مثل كاريكاتير في جريدة، و.. أنا، سآخذ فيك "وجه الله" وأشتري لكِ برميل آيس كريم، اليــوم، لأن هذه الأرطال التي تتحدثين عنها ستجعلك تبدين كالبشر.. ولو لمرة!

انتزعت مريم الوسادة وقــذفتها باتجــاه معــاذ، فطــارت "القحفية[23]" من فوق رأسه، (تلك التي لا يخلعها أبداً)، وبدت لنا فروة رأسه للمرة الأولى، سوداء مشعثة، فاحمرّ وجهه بشــدة.. انقلبت مريم على ظهرها تضحك، وأطلقــت إســراء زغاريــد (مبالغٌ بها أيضاً) وهي تهنئ الحضور على الحدث التاريخي في الأسرة..

- مبروك! مبروك!
- وأخيراً عرفنا بأن لكَ رأساً مثل..
- مثل البشر يا مريومة؟
- بالضبط!

وتضاحكت الاثنتان..

تمتم معاذ متبرماً وهو يعيد وضع "القحفية" على رأسهِ..

- أنتنّ تتحرشن بالتنين.. سوف تندمن!

ضحكت مريم..

- "يا معوّد".. خوفتنا!

- قال تنين قال.

- الحمد لله الذي بلغنا برؤية الليفة.

- يمه! أثناء حبلك بمعاذ.. بماذا كنتِ تفكرين؟ بتنظيف العالم؟

حركت إسراء يدها برشاقة وانتزعت مشبك رأسها، فانهمر الكستناء الحريري على كتفيها وأخذت تتمايل به يميناً ويساراً، وهي تردد أغنية البدو "يا غزال المها" ومريم تصفق..

نهض معاذ من مكانه وجلس بجانب أمي..

- شفتي بناتك يمه؟

- شفت..

لم تكن أمي تكثر الحديث، كانت ساهمة ترقبنا.. على ثغرها ابتسامة صغيرة، منشغلة البال بـ.. بي أنا؟

صاحت مريم:

- معاذ حبيبي، أنا سأشتري لك "برميل" بلسم شعر، على الأقل حتى لا تجرح المحروسة امرأتك إذا قررت في يوم نحس أن تمسح بيدها على رأسك!

ثم وضعت يدها على رأس معاذ وصرخت كما لو أن شوكةً قد انزرعت في كفها:

- أخ! جرحتني يا غدار..

هتفت إسراء مساندة:

- معاذ حبيبي، بمناسبة أنك عانس.. هل سمعت عن علاج الشعر بالكيراتين؟

ولما عرف معاذ، الولد المدلل الوحيد، بأنه لن يحصل على أي دعم من أمي في تلك المناقشة، برطم متبرمًا..

- أنا لستُ عانساً.
- طيب! طيب! أنت الرجل العذراء!

وضربت مريم يدها بيد إسراء في تحالفٍ واضح.

- أنا رجل الرجال وفحل الفحول ولكنني لم أجد امرأة تليق بي.
- نجدها لك نحن يا أخي! كل ما عليك فعله هو أن تتخلص من "القحفية" لأنك.. يعني، لا بد وأنك تعرف بأنك لا تستطيع أن تنام وأنت تضع طاقية الإخفاء على رأسك..
- أخلع طاقية الإخفاء وأحلق شعري وشواربي أيضاً، ولكنك لن تجدي لي عروسًا ولا حتى نصف عروس.
- ولمَ؟
- لأن ذوقك لا يناسبني، ولن تجدي لي إلا المتردية والموقوذة، أنا.. أريد أن تخطب لي عواشة.. عواشة وبس!

ونظروا إلي جميعاً.. الأربعة الجالسون على سريري الكبير، يطارحون صمتي.. قال معاذ:

- ما رأيكِ عواشة؟ تخطبين عروساً لأخيك الوحيد؟

هتفت مريم:

- معاذ الله! لن توافق إلا إذا خلعت طاقيتك..

معاذ:

- أنتِ لا تتدخلي.. الموضوع بيني وبين أختي حبيبتـــي! أجمل أخواتي على الإطلاق.. وأكثرهن عقلاً وأدباً، أنا أريد زوجةً مثل عائشة، وصديقة دربٍ مثل عائشـــة، وأمًا لأطفالي مثل عائشة، قلبهـــا أكبـــر مـــن الكـــرة الأرضية.. وهي لا تتحدث عـــن الســـعرات وعـــلاج الكرات.
- الكيراتين!
- نعم، هذا هو ما قصدته، عائشة لا تتحدث عـــن هـــذه الأمور، إنها تتحدث عن أشياء مختلفة وشفافة! انظري إلى المكان، على هذه الطاولة فقط يوجد.. كم كتاب؟

وأخذ يحرك سبابته وهو يحصي الكتب المتراكمـــة علـــى الطاولة.

- سبعة كتب! هي تقرأ سبعة كتب دفعة واحـــدة.. ولكـــن أنتِ، تقرأين صفحة المطبخ في مجلة "سيدتي" وتتذمرين من عدد السعرات الحرارية! هذا هو السبب، يا أختـــيّ العزيزتين.. الذي يجعل الفتى يعزف عن الزواج، إلـــى جانب غلاء المهور وصعوبة التخلي عن طاقية الرأس! السبب هو أن الأنوثة أضحت ضحلة جداً، وتفتقر إلـــى الغموض، وصارت لا تتجاوز ألوان طـــلاء الأظـــافر وصبغات الشعر.. ولكن عائشة هنا، لننظر إليهـــا الآن، وحاولا أن تقتبسا من فيضها.. فهي لم تنم بالأمس، كما هو واضح.. لماذا؟ لأنها تفكر! أجفانها منتفخة، بشرتها صفراء شاحبة، شعرها غير مسرح، ملابـــس نومهـــا قطنية مهلهلة، وأذنها بلا أقراط، وساعة يدها بسيطة من ماركة.. أريني معصمك عواشة، ماركة فوسل! هاتفهـــا

الخلوي يقبع في أبعد مكانٍ ممكن عنها.. ولكنها مع ذلك تنضح بالأنوثة، لماذا؟ لأنها تقلق وتحنو وتحن وتحب وتتساءل كثيراً و..

وتناول أحد الكتب بيديه وفتح صفحةً عشوائية من الكتاب وقال: "لنقرأ ماذا يوجد في رأس أختنا، هل تسمحن يا سيدات؟" وبإلقاءٍ جميل قرأ الكلمات الأخيرة التي كتبها نيكوس كازنتزاكيس في مرض وفاته:

"**أجمع أدواتي: النظر والشم واللمس والذوق والسمع والعقل، خيم الظلام وقد انتهى عمل النهار، أعود كالخلد إلى بيتي الأرض، ليس لأنني تعبت وعجزت عن العمل، فأنا لم أتعب ولكن.. غربت الشمس**"

سألت مريم:

- يعني؟

فرك معاذ رأسه وقال..

- لا أدري، ولكنها أشياء عميقة وتحوي طاقة من نوعٍ ما، وأن توجد على وجه البسيطة امرأة مشغولة بأسرار الحياة إلى هذه الدرجة، وقادرة على أن تقرأ أشياء من هذا النوع طوال النهار، وطوال الليلِ أيضاً.. فهذه هي المرأة التي أحترمها، لأنها تعيد إلى الأنوثة بهاء الغموض وعمق المعنى، وعائشة، رغم أنها تبدو متعبة وشاحبة إلا أنها تبدو لي أكثر حياة وحضوراً وأنوثة ومعنى من ألف امرأة..

لكزت إسراء يد مريم..

- سمعتِ أخيك؟ كل هذا الغزل والمديح لعائشة وأنا وأنتِ.. صرنا الأختين الشريرتين لسندريلا؟

- على الأقل سنحظى بالفساتين.
- والساعات الغالية..
- وصبغات الشعر.

وأمي.. ما زالت أمي تنظر إلي من مؤخرة رأسها، تراني من حيث لا أراها، تحس بجسدي يرتعد واضطراب يجتاح قلبي.. كيف يمكن أن يراني أحدٌ بهذا الجمال، وأراني أنا بهذه الدمامة؟

13 أبريل 2010

الساعة 3:00 مساءً

اليومَ نظرتُ في المرآة..

عادةً أنا لا أنظر إليّ في عيني، خوفٌ من نوعٍ ما يمنعني من إمعان النظر في الجرح الذي يتكاثرُ في أعماقي، ولكنني كنتُ أتحسس بشرتي بأصابعي، أبحثُ عن الخطوطِ والتجاعيدِ والأزقة والشّوارع التي يفترض بالزمن أن يتركها على وجهي، وأبحث عن الظلال السوداء الحزينة أسفل عيني، وأبحثُ عن هدب سقط على خدي في غفلةٍ من أمنية، وأبحث.. أبحث عني؟

لا.. لم أكن أبحث عني، كنتُ أبحث عن عائشة التي تحدث عنها معاذ، عائشة التي تنضح بالأنوثة والعمق والغموض. عائشة الأسرار، عائشة الحكمة المفترضة، عائشة التي تشبه عشتار البابلية وهي تتباهى بأنوثتها: **أنا الزوجة وأنا العذراء/أنا الأم وأنا الابنة/أنا العاقر وكثرٌ هم أبنائي!**

كدتُ أضحك، ولكن الحقيقة أنني بكيتُ، ورأيتُ الدّمعة تسحّ ثقيلة متباطئة على خدي، تشق طريقها إلى الهدب الذي فرّ من قبضة العينِ.. وتأوهتُ، في أعمق بؤرة من قلبي وغلبني السؤال: من أنتِ يا عائشة؟ من أنتِ؟ ثم تجاسرتُ، ونظرت في عينيّ، وتذكرتُ أشياء قرأتها مرة، قرأتها وأنا أحسّ بأنني أقرأ هرطقات العولمة الجديدة، أنواع العلاج النفسي التي توصي بأن يتأمل المرء سحنته في المرآة كل يوم ويقول لنفسه: أنا أحبك!

وللمرة الثانية أردتُ أن أضحك، ولكنني بكيتُ أكثر، وصـــارت الدموع تتفجّر بترف وسخاء.. وتذكرتُ كلمته في ذلك اليـــوم، تتردد أصداؤها في داخلي وتمزقني إلى ألف قارة حزن.

- فاقد الشيء لا يعطيه!

أنتِ لا تحبين نفسك يا عائشة.. همستُ، مبتسمةً بحـــزن، وكانت تلك لحظة اعترافٍ حقيقية، ثم قررتُ أن أقولها بصـــيغة السارد الذاتي، لا بصيغة المخاطب، وأن أكون أكثر شفافية مع هذه الحقيقة وأن أجابه.. التنين في داخلي؟

- أنا لا أحبكِ يا عائشة.

وبصعوبة بالغةٍ قلتُ:

- أنا لا أحبني.

وبعد حينٍ، من الصمت، قررتُ أن آخذ الحقيقة إلى أبعادها الفعلية وأن أعترف:

- في الواقع أنا أكرهكِ يا عائشة.

ورأيت اختلاجةً خفية في شفتي السفلية..

- أنا أكرهني.

ولأول مرة صرتُ قادرة على أن أنظر إليّ، في عيني، في صحارى الخواءِ والعري الفاحشِ، وبدوتُ لي.. مثـــل شـــجرة عجفاء جافة العروق، كنتُ الشجرة في احتضارها تموتُ واقفة. صارت شفتاي تنفرجان تلقائياً: أنا أكرهني.. أنا أكرهني.. أنـــا أكرهني.. أنا أكرهني.. أنا..

ينبغي أن نضع النقاط على الحروفِ يا عائشة، أن نتعرف على هذا الواقع على أتم ما يمكن. أنا، على ما يبدو، أكرهك يا عائشة، ولكنني أنتِ في الوقت ذاته، أنا التي تكرهك وأنتِ التي تكرهني، وهذا الإحساس الفصامي بوجود وعيين متضـــاربين،

واحدٌ يشدني نحو.. الحياة؟ والآخر يجرني نحو أعمق قبرٍ يمكن أن يدفن به إنسان؟

آه يا عائشة.. تريدين أن تنتهي وحسب؟ أن تنهي الأمر وحسب؟ ولكنك تعرفين بأن الأمر ليس بذات البساطة، بأن عليكِ أن تستحقي موتكِ وأنتِ لم تحققي ذلك حتى اللحظة. ما الذي يستوجب عليّ فعله لكي أصير جديرة بميتتيٍ الآتية؟

وفيم الأسئلة تتواتر في داخلي، أحسستَ بصدري يمتلئ وينتفخ، ودفنت وجهي بين كفيّ، وأملت ساعديّ على سطح الطاولةِ وسمعتُ نفسي أهمسُ:

- **ربما يجب أن تحبي نفسكِ يا عائشة.**

كان همساً، كان وحياً، كان صوتا ضئيلاً، خافتاً مثل شمعة، انبثق من داخلي.

معقول؟

13 أبريل 2010

الساعة 7:00 مساءً

نمتُ قليلاً، ولم أكره الأمر، لأن وجــود أمــي، ومــريم وإسراء ومعاذ، يجعل الكتابة تتعذر أكثر فأكثر، وأنا لا طاقة لي بتبديد البقية الباقية من وجودي، في مجاملاتٍ اجتماعية باهتــة، سأنتظر حتى صباح الغد وأطلب منهم المغادرة، سيكون قد مــر على وجودهم يوم ونصف، وهي فترة كافية لكي يصدقوا بأنني على ما يرام، في مثل هذا الصخب المزعج المتطاير في أنحاء شقتي ذات الــ 200 متر مربع، أفتقد صمت عدنان، وعزلتــه، وانزواءه، ومرآه وهو يتمدد على أريكــة الصــالونِ، ويشــخر بخفوت..

- سنذهب الآن يمه!
- بحفظ الله..

غادرتا للتوّ، صفقتا الباب بقوة، أم أن حواسي ما عادت تحتمل هذا الحضور المدوّي للحياة؟ حتى عندما تغادران فهما تفعلان ذلك بشكلٍ مزعج، وأنا في غرفتي، وبابي مقفل رغم توسلات الجميع، قلتُ لهم: أريدُ أن أكون وحدي! وقد كان لي ذلك، وفي اللحظة التي تكورتُ فيها تحت لحــاف الســريرِ، نمتُ..

رأيتُ إنانا واقفة في بهاء الضوء، رأسها عارٍ. سألتها..

- أين تاج السهول؟

ولكنها لم ترد، بل صوبت إليّ نظرة عتب وشعرتُ بقلبي ينقبض..

- ماذا فعلتِ يا عائشة؟

وارتبكتُ..

- لم تذهبي إلى مجمع الآلهة ولم تنوحي.
- لم يمضِ على ذهابك سوى يوم.. الأسطورة تقول! الأسطورة تقول.. ننتظر ثلاثة أيام!
- ولكنك لم تقرأي الكتاب جيداً يا عائشة، وليس لديك ثلاثة أيام.
- بل أحفظ الكتاب عن ظهر قلب!
- هذا لا يكفي.

وأفقتُ، أتصبب عرقاً وألهث كما لو أنني ركضتُ أزماناً سحيقةً، ولما أيقنتُ بأنها كانت رؤية، انكمشتُ على نفسي وخبأت رأسي تحت الوسائد وأنا.. أحسّ بأنني محاصرة، ما معنى هذا؟ إنانا تلومني، تخبرني بأنني لم أفهمها، لم أقرأ الأسطورة كما ينبغي رغم أنني أعرفها أكثر من باطن يدي، ما معنى هذا؟

كفي يا عائشة، كفي عن شحذ الأسئلة على هذا النحو لأن عقلكِ سينفجر، ولأن قلبكِ سينكسر.. كفّي وحسب، أياً كان ما يعنيه ذلك، وما لا يعنيه، عليكِ الآن أن تفعلي ما هو مطلوبٌ منك! ولما وجدت أوصالي ترتعد عرفتُ بأنني خائفة، فتحتُ باب الغرفة وخرجتُ إلى الصالة، وجدتُ أمي تجلس هناك، صامتة ومطرقة، تحيكُ مفرش "كروشيه" بيدين خفيفتين، وهي تنصتُ إلى قناة تبث قراءة القرآن الكريم على مدار الساعة، ولما رأتني، والهلع في وجهي.. نادتني "يمه عواشة، تعالي"،

فأسرعتُ إليها، وضعت رأسي في حضنها وأمسكت بيديها وكان جسدي بارداً ينتفضُ.

- أنا خائفة.

ها قد قلتها أخيراً.

14 أبريل 2011

الساعة 1.04 صباحاً

لماذا تنزل إنانا إلى العالم السفليّ؟

لماذا تترك هيكلها المشيّد في "أور"

وتنزل إلى العالم السفلي؟

لماذا تترك عرشها في الأعلى العظيم

وتنزل إلى العالم السفلي؟

لماذا تترك بهاءها في الأعلى السماويّ

وتنزل إلى العالم السفليّ؟

كل شيءٍ يبدأ من السؤال، وأنا أمضيت ثلاث ساعات في ابتعاث أسطورة من مرقد 3500 سنة ق. م، لكي أجد جواباً لا يرفضه عقلي. لماذا تنزل إنانا إلى العالم السفلي؟ فأنا، مهما قال الباحثون، لا أصدق بأنها فعلت ذلك من أجل ابتعاث تموز، فإذا بها تأمرُ بأخذه إلى العالم السفلي بديلاً عنها! ثمة تناقض لا يغتفر، ومدمّر لكل عمق ممكن في الأسطورة. لعلّ السبب الوحيد القابل للتصديق هو أنها ماتت من أجل نفسها.

مزاعمنا تذهب بأن أسطورة هبوط إنانا إلى العالم السفلي تتمحور حول الإله الفادي، وبأن إنانا تجسد قوة الإخصاب الكونية، فإن غيابها وموتها، يمثلان دورة الحياة. قيل بأنها تأويل

الإنسان البدائي لظواهر طبيعية، منذ غياب الخصوبة وسيادة الجفاف وعري النبات، وحتى العود الحميد للحياة الخضراء مرة أخرى.. باحثون أكثر جرأة وجدوا علاقة وثيقة بين الأسطورة ومراحل النمو القمري، واكتشفوا علاقة وثيقة في وعي الإنسان القديم بين دورة الحياة/دورة القمر/الدورة الشهرية للمرأة، في تشابك وثيق يكاد أن يكون تماثلاً بين الدورات الثلاث: الحياة، القمر، المرأة.. هل هذا هو كل شيء؟

لا يمكن، فهذه هي البداية فقط، لأن عنجهيتنا الثقافية، واعتقادنا بأن الزمن قد تقدّم بنا فعلاً، وإيماننا بأننا أكثر تطوراً من الإنسان البدائي، وبأنه أبسط بكثير من أن تتجاوز أسئلته الألغاز الفلكية ودورة الفصول وهكذا أشياء زعمنا بأنها تثير حيرته، لأنه - كما نظن - أعزل وخائف في طبيعة غير رحيمة.. رغم أن الزمن قد تقدم بنا لكي نصير أكثر عزلة، لكي تصبح الطبيعة أكثر غموضاً وبعداً واستعصاءً بالنسبة لنا.

إنانا أحلامي غير راضية، كيف تحصر تلك الأسطورة البديعة في تأويلٍ من هذا النحو؟ تأويل الإله الفادي مقحمٌ ودخيل، والزعم بأن الأسطورة هي مجرد تفسيرات بدائية للظواهر الطبيعية هو حصرٌ وتقنين لإمكانياتها.. هل هذا هو ما حاولت إنانا أن تقوله لي؟ بأن الإنسان القديم أكثر ذكاء وشفافية روحية منا؟ بأن الطبيعة لا تخيفه، بل تخيفنا نحن؟ بأن الفصول لا تحيره، لأنه يحس بها داخل وجدانه؟ بأن القمر لا يبلبل أفكاره، بأن الإنسان القديم، بقدراته الروحية وحواسه اليقظة، قد وصل إلى القمر قبل نيل آرمسترونغ بقرون، (إن كان الأخير قد وصل حقاً!).

مهلاً، لقد رأيتُ شيئاً يلمعُ في السطر الأخيرْ.

14 أبريل 2011

الساعة: 2.05 صباحاً

أريدُ أن أنام..

الجسدُ الحيّ يطالب بحقوقه، وأنا لم أهبه إلا أربع ساعاتٍ هزيلة من النوم في الأيام الثلاثة الماضي، عيني تغمضُ من تلقاء نفسها، شهادة الجسد الحيّ على حياتهِ، حاجاتنا البسيطة هي الجواب القاطع: ما زلتُ على قيد الحياة وأحتاج أن أنام، أحسّ برأسي شاسعة وثقيلة، مثل كوكب مأهولٍ بالغرباء، يطفو في السديم.. سأنامُ الآن، نعم.. سأنامُ، سأنام..

14 أبريل 2011

الساعة: 12.03 مساءً

تركوني أنام، تقولُ أمي "النوم عافية" وأنا، على ما يبدو، مريضة بشكلٍ أو بآخر، وعندما استيقظتُ كان الضوء يلطخُ جدران غرفتي، وكانت رائحة "الملفوف المحشي" متفشية في الهواء، وكانت كلٌ من إسراء ومريم قد خرجتا، ومعاذ يقرأ ورده من القرآن في غرفةِ الجلوس.. ومكثتُ هكذا، في السرير، أحدق في سقف غرفتي، في الضوء المزعج الذي يعمرُ المكان، في النافذة الخائنة، في مزيجِ الروائح الكريهة، رائحة الظهيرة والطبخ والضياع، وتساءلت.. كيف آخذُ نفسي من كل هذا، كل هذه التفاصيل التي تتفشى في المكانِ مثل وباء، تلتهم أطرافه وتمزق وحدته؟ كيف أستطيع أن أنتزعني مِن وجودي هنا لأعود، مرة ثانية، إلى الزمن السحيق حيثُ وجدتُ نفسي، بدون أي إحساسٍ بالندم، أقرر أن أفني الأيام الباقية من حياتي في الكتابة عن أسطورة! وأحسّ بأنني أطرق أبواب جديدة، وأجوب أزقة غير مأهولة، بأن ما أكتبه، ما أكتشفه، ما أحسه في كل قطرة دمٍ ودمع.. مهم جداً، وأن الناس بحاجة إلى معرفته! لقد جذبتني الحقيقة إلى النور، وصار مستحيلاً عليّ أن لا أستجيب لذلك النداء الملتبس الذي يجيء من داخلي، كل خليةٍ من جسدي، كل شيءٍ يحثني على الكتابة، ولكن ها أنا الآن، وقد حظيت بست ساعاتٍ سخية من النوم، أعاني.. في لحظةِ يقظتي،

من قلة حساسية العالم، يوجعني الضوء، والرائحة، والصوت وكل ما يفكك وحدتي، ولا أفهمُ.. كيف يمكن أن يتركوا عوالمهم، بكل ما يدور فيها هناك من زحامٍ هجين، لكي يقطنوا عالمي.

نهضتُ عن سريري وذهبتُ لألقي نظرةً على الخارج، رأيتُ معاذ متربعاً فوق الأريكة، طاقيته فوق رأسه، لحيته مشذبة، يمسك بيُمناه مصحفاً صغيرًا، لا ينظر إليه، ولكنه يرتل ما فيه وحسب: "أيحسبُ الإنسانُ أن يترك سدى[24]"، ثم حين رآني تهلل وجهه، أطبق دفتي المصحف وهتف بي:

- يا هلا! يا هلا!

وببلاهةٍ شديدة نظرتُ إليه دون أن أرد على حرارة ترحيبه.

- عواشة، شبعتِ نوم؟ طلبت أمي أن نتركك على هواكِ.. أنا كنتُ أريد اصطحابكَ معي لنتمشى قليلاً، بس أمي.. تعرفين أمي، تقول النوم أفضل لكِ!

وأطبق عليّ الصمت مرة ثانية.

- أين أمي؟
- في المطبخ، والتوأم السيامي غادر.. ارتحنا!
- إلى أين؟
- إلى المطعم..
- أي مطعم؟
- نسيتي يا عواشة؟ المشروع التجاري الذي سنفلس بفضله!
- أي مشروع؟

- مشروع المطعم المتخصص في السلطات.. طبعاً أنا شخصياً لا يمكن أن آكل في مكان كهذا، حتى لو عملوا لي "سلطة مندي"!

ابتسمتْ، ببلاهةٍ وخمول أجبتُ.

- آه، أنت.. أنت تحب اللحم!
- الحمد لله أنك ما زلتِ تذكرين ذلك.

وابتسم بحنان، ثم عاد وفتح دفتي المصحف وواصل الترتيل.. وأنا مكثتُ هناك، شعرتُ بارتياحٍ غريب، وكنتُ أطفو في فراغ المكان، وسرحتُ بأفكاري، نمتُ لستّ ساعاتٍ وابتلعني حلم عظيم.. أتذكر أبواباً تفتح، بابٌ يفضي إلى باب، وبابٌ يفضي إلى آخر، وهكذا.. طوال ستّ ساعاتٍ كنتُ أشرّعُ الأبوابَ الموصدة، الأبدية، التي لا تنتهي، وفي ذهني فكرة غريبة وهي أنني إنما أفعل ذلك من أجل الذين سيأتون من بعدي، وأتساءلُ ماذا كان خلف كل باب.. أ عزيز؟ أم بابٌ آخر؟ وهناك دائماً بابٌ آخر وآخر وآخر، ولأنني أمضيتُ الليل بطوله في الهرولة في أزقّة حلمي وفتح أبوابهِ، أشعر بتعبٍ غير مسبوق، لو أنني لم أنم لربما كان أفضل؟ ولكن من كان سيفتح كل تلك الأبواب لو لم أنم؟

"أليسَ ذَلِكَ بقَادرٍ عَلى أنْ يُحيي الموْتَى"[25]

شعرتُ بنصلٍ يخترق حجابَ أفكاري، انتفضت روحي، وكان معاذ قد أنهى قراءة الآيات وأطبق دفتي المصحف، وضعه على الطاولة على يمينهِ ثم جلسَ.. متربعاً، ينغزني بعينيه، ويبتسمُ بصفاء.. وشعرتُ به يعرّيني، ينفذ إلى روحي.

- ماذا تحبين أن نفعل يا عواشة؟
- أنا.. أنا لدي ما أفعله.

- وماذا يكون ذلك؟
- .. سوف أكتب.
- ولكنك تكتبين طوال الوقت!
- نعم.

لم أخبره بأنني أكتب لأن هذا ما يجب علي فعله، بأن الكتابة هي ندائي، بأنني أشرع أبواباً، لم أخبره بشيءٍ ولكنني، لسببٍ غامض، أحس بأنه يعرف مسبقاً كل هذه الأمور، وهممتُ بالنهوض والعودة إلى غرفتي، حتى سمعته يقول..

- أنا لا أفهمكِ..

استدرتُ إليه، كان وجهه جاداً، جديته مربكة و.. شعرتُ برغبة في الركض خارج سطوة عينيه الكبيرتين، وأعاد القول:

- أنا لا أفهمك عواشة.
- ربما لا يجدر بك ذلك.

أعرف بأنني لا أبدو منطقية، ولكن هذا آخر اهتماماتي حالياً..

- أنت تظنين بأنك ستموتين بعد أيام..
- أنا لا أظن، أنا أعرف.
- طيب، عواشة.. تحمّلي أسئلتي قليلاً ولكنني بحاجة لأن أفهم شيئاً واحداً، إن كنت تعرفين بأنك ستموتين بعد أيام، إن كنتِ متأكدة من ذلك، فلماذا تتصرفين كما لو أنك تملكين الدهر كله؟

فوجئتُ بسؤاله.. ابتسمتُ مبهوتة.

- كيف تكونين متأكدة من موعد موتك، وفي الوقت ذاته.. كيف يمكنك أن لا تستغلي كل دقيقة باقية من حياتك مع الذين يحبونك؟ لماذا لا تجالسين أمي مثلاً..

قلبها عليكِ، قالت منذ الصباح سأعد الملفوف المحشي الذي تحبه عواشة، أو تجلسين معي.. كلنا هنا لأجلكِ ولكنك.. تتغاضين عن حضورنا، تتصرفين وكأنك وحدك، وكل ما تريدينه هو أن تنجزي كتابة هذا الشيء الذي تعكفين عليهِ طوال الوقت.

وشعرت بابتسامتي تتسع..

- لماذا لا تردين؟
- عن إذنك!
- عواشة، أنا أخوك.. كلميني!
- أليس لديك عمل يا معاذ؟ اليوم هو الخميس.
- أنا في إجازة.

قال بصوتٍ يشوبه نوعٌ من العتب.

- إجازة؟ يجدر بك أن تستمتع بوقتك إذن.
- قدمت على طلب إجازة لأجل أن أكون معكِ عواشة، لأنني قلقٌ عليكِ.
- آه.. لم يكن ثمة داعٍ لهذا، فأنا كما ترى.. بخير.

وهممت بدخول غرفتي.. وقبل أن أغلقَ الباب سمعته يقول:

- عدنان اتصل..
- طيب!

وأقفلتُ الباب وأنا أحس بأنني قد نجوت من الموت.

أقصد.. نجوتُ من الحياة!

14 أبريل 2011

الساعة: 3.10 مساءً

> **".. وفي معرض حديثهم عن الأسطورة ومقارنتهم لها بالأسطورة البابلية اللاحقة (هبوط عشتار إلى العالم السفلي) تحدث معظم الكتاب عن سبب غامض دعا الإلهة في النص السومري للهبوط، السيد س. ن. كريمر كان له الفضل الأكبر في جمع الأجزاء المنشورة سابقاً لهذه الأسطورة واكتشاف أجزاء جديدة مكملة، لم يستطع أن يقدم تفسيراً للهبوط وسبباً له، كسبب عشتار التي هبطت فيما بعد لتحرر حبيبها تموز، وجرى على منواله في ذلك كثيرون، رغم أن السبب يبدو واضحاً وجلياً إن نحن وضعنا نصب أعيننا التضحية والفداء ودورهما في فكر المنطقة"[26]**

لا.

لم تذهب إنانا إلى العالم السفلي لكي تنقذ تموز/دوموزي. البداية غير ملائمة، والنهاية مغلوطة، والحكاية متناقضة، والأمر ببساطة غير ممكن، وأنا أعرف ذلك يقينًا لأنني بتّ أقرأ النص بملء قلبي، حرّة من تأويلات الباحثين، كل كلمةٍ ترد فيه أحس بها تدوّي في دمي، أحس بأنني أفهمها جيدًا، تلك الكلمة الأقدم من 3500 سنة، لا مشكلة تواصل بيني وبينها، في حين أنا أعجز من أن أخوض في حديثٍ عادي مع أخٍ أو زوج أو

أم.. نعم، أنا متأكدة مما أقول، وحدسي اليوم مشعّ، يرشدني بلا عناء، لألجُ أحراش النص ومداراته، بين الحرفِ والحرفِ أجد بعضي، بين الكلمة والكلمة أجدُني كاملة، كل شيءٍ واضح، مفهوم، بسيط، نقي! إنانا لم تنزل إلى العالم السفلي لأجل إنقاذ تموز، وإن صح ذلك في وجهها البابلي/عشتار، فهو لا يصح في وجهها السومري، الأكثر عراقة وقدماً.

إن تصديقنا لهذا الأمر يجعلها في نظرنا خائنة ومتناقضة، تقطع بوابات الموت السبعة من أجل استعادة حبيبها ثم تتركه بمجرد أن ذاقت هي ويلات الموت! مجرد تأويلٍ ذكوري دوغمائي آخر لملحمةٍ روحيةٍ عظيمة! لماذا نخلطُ الأمور؟ دوموزي لم يكن في العالم السفلي، بل كان في "كولاب" يضع على جسده الثياب الفاخرة، جالساً على عرشه، يعزف على مزماره. إنانا لم تمت من أجل إنقاذ أحد، إنانا ماتت من أجل نفسها، وهذه الرحلة، منذ الحياة وحتى الموت، منذ الأعلى العظيم وحتى الأسفل العظيم، هي لأجل إنقاذها هي، إنها مسيرة روحية قطعتها إنانا بغرض اكتشاف ذاتها، وهو ما لا يتحقق إلا بالتوغّلِ في أغوار النفس الباطنة، أو بما نسميه نحن باللا وعي! هذا ما فعلته إنانا، فهي العارفة أكثر من غيرها بأن الشكل الوحيد الممكن للإنقاذ (بالمعنى الروحي) هو إنقاذ الذات.

أرادت إنانا أن تهجر الماديّ إلى الخفيّ الملتبس، إلى الجوهري، إلى الأسرار الخفيةِ التي تنتشرُ في ظلمات الروح غير المأهولة.. أرادت أن تكتشف ذاتها بوجهيها، السماوي والأرضي، الظاهر والباطن، الحي والميت، الأسود والأخضر.. أرادت إنانا أن تعرف كل ذلك، فذهبت في رحلة إلى عالم الظلمات، لتلتقي بوجهها الآخر: أريشكيجال/إنانا في وجهها

الأسود، لأن الخلاص الروحي لا يتحقق إذا لم نعترف بذلك الجزء المعتم من حقيقتنا، العامر بالنواقص، والندوب، والتشوهات، والثقوب.

من الأعلى العظيم تاقت إلى الأسفل العظيم
من الأعلى العظيم، تاقت الربة إلى الأسفل العظيم
من الأعلى العظيم تاقت "إنانا" إلى الأسفل العظيم
هجرت سيدتي السماء، وتركت الأرض
"إنانا" هجرت السماء والأرض
إلى العالم الأسفل قد هبطت

تغاضينا بسهولة عن كونها (تاقت) إلى الموت وحسب، إنانا.. تاقت إلى الموت، وهذا هو السبب الوحيد لتلك الرحلة/المسيرة/الملحمة/البطولة/الأسطورة. التوق، القلق، الشغف إلى المعرفة: معرفة الذات.. سيدة المعارف جمعاء.

من المضحك أن يكون عندي تحفظات على ما يراه الباحثون والدارسون! أنا التي لم أدرس، ولم أبحث بالمعنى الأكاديمي، أنا ربة البيت المُملّة التي تمضي يومها كله في قراءة نصوص عمرها 3500 سنة؟ نعم أنا.. وإذا لم يكن العالم مستعداً لسماعي، فهذه مشكلته، ولكن بالنسبة لي، سأكتبُ على أي حال، سأكتبُ أشياء لن يقرأها أحد.

تكشفُ الأسطورة ثلاثة أوجه للذات: ننشوبور، إنانا، وأريشكيجال. وبلغةٍ فرويدية: الأنا الأعلى، والأنا، والهو[27].. الأعضاء الثلاثة في الجهاز النفسي الإنساني، حيث لكل منه مغازيه وأبعاده، ولكنها بأي حال ثلاث ظهورات مختلفةٍ لحقيقة

واحدة، وثلاث تجليات لجوهر واحد. وهذا منطقي إلى حدٍ بعيد، أن تشدّ إنانا الرحال من أجل أن تلتقي بذلك الجزء الخفي من ذاتها، القابع في أعماق العالم السفلي.. فكيف تنطلق الذات في مسيرة اكتشاف الذات إلا صوب الذات؟

أريشكيجال، التي تمثل هنا الجانب المُظلم منا، الجانب الذي نميلُ إلى إنكاره والذي يحتاج إلى الشفاء والحب، هي الوجهة الوحيدة الممكنة للأنا/لإنانا من أجل سبر ذاتها. أما عن ننشوبور، وزيرة إنانا المخلصة، فرغم أنها تردُ في كثيرٍ من الترجماتِ بصفةِ خادمٍ ذكر، إلا أن مزيدًا من التقصّي عن هذه الشخصية المثيولوجية يرجح أنها أنثى[28]. الجنوسة هنا قضية هامشية، لأن الأنا الأعلى مكتملُ النضجِ بما يتجاوز مثنوية الجنس. ننشوبور هي ذلك الجزء المكتملُ منا، هي الضميرُ المخلص لإنانا، والناسكة التي تتدخل لإنقاذ الأنا من التورّط في غياهب الهو/أريشكيجال، وهي تنقذ إنانا في كثيرٍ من النصوص الأخرى، أليست هي التي أنقذت زورق السماء من الضياع؟[29]

هذا يعني أن الأسطورة ليست تفسيراً للظواهر الكونية، الفلكية، والبيولوجية أيضاً وحسب، بل هي أيضاً خارطة مثالية للمسيرة الروحية للإنسان لكي يخلص ذاته من تمزقه بين فوق وتحت، هي رحلة البطل لاكتشاف حدوده وممكناته وعمقه، وللتحرر من آلامه، ولكي يحتوي ذلك الجزء الكامن في الظلام، الجزء الذي طالما أنكره، ولا يصح شفاؤه إلا باحتوائه.

نزولنا إلى العالم السفلي ليس شططاً ولا تطرفاً ولا مبالغة في المغامرة، بل هو ضرورة نفسية لخلاص كل إنسان.. إنانا لم تكن تفتدي العالم بموتها، بل كانت تتمم به وجودها هي[30].

15 أبريل 2011

الساعة: 6.06 صباحاً

- عواشة..

كانت تقف خلف الباب، تنظرُ إليّ بوجل، نصفها في غرفتي، نصفها في الخارج، في وجهها قلقٌ قديم، كيف لم ألحظ ألمها قبل اللحظة؟ كانت تخاف الدخول، حرفياً.. تخاف الأم من أن تدخل إلى غرفة ابنتها، إلى وكر الصمت والعزلة والعقوق المغلف بابتسامات مهذبة، لم أكن يوماً ابنةً كما ينبغي يا أمي، تخافين أن تعترفي بالأمر، لم أكن ابنة ولم أكن أماً، لم أكن أي شيء بخلاف ما أنا عليه الآن.

- هلا يمّه.

وضعتُ القلم من يدي وابتسمتُ بفتور، ورأيتُ خطوط وجهها تنفرطُ بسخاء..

- أضع لكِ المحشي؟
- آه.. المحشي!

لقد نسيتُ تماماً أمر المحشي، رغم أن الرائحة تتضوع في هواء المكان وتملأ مسامه، كانت قد اجتهدت من أجل إعداده، جلست في المطبخ لساعاتٍ في حشو الملفوف وطيه، ولم تتكلم، لم تصدر صوتاً.. الساعة تجاوزت السابعة مساءً، انتظرت لساعاتٍ طويلة حتى فطنت بأنني خارج نطاق هذا العالم، المحشي وحنان الأم وعتب الأخ وهجرة الزوج، كل شيءٍ يبدو نائياً الآن، ولكن

وجهها.. وجهها المسكين الحبيب! يخترق كبدي بلا رحمة، عيناها تلحّان بتوسل، تريد أن تراني آكل، هذا كل ما تريده هي، منذ بدأت نهارها وفي نيتها غايةٌ واحدة: أن تراني آكل!

- الساعة 7.. يمه.. لماذا لم تخبريني من قبل؟
- طرقنا الباب مراتٍ كثيرة، لم تكوني تردّين!

يبدو أن الثقب الذي يأخذني إلى عالم ما قبل 3500 سنة قبل الميلاد قد غيّبني تماماً.

- أنا جائعة جدًا.

كان هذا أقصى ما استطعت قوله، بدلاً من "يا بعد قلبي يا يمه"، مثلاً.. "آسفة لم أنتبه للوقت" أو "شكراً "على أقل تقدير، على المحشي وعلى الحنان في عينيكِ، ولكنني لم أقل شيئاً، قلتُ بأنني جائعة، ورأيتها تتوارى.. لم يعد ثمة ما يهمها إلا أن تملأ لي صحناً بالملفوف المحشي.

غادرتُ غرفتي.. غادرتُ جغرافيا الصمت، وطأتُ الأرض المدنّسة، أرض العادي! ذهبتُ إلى غرفة الجلوس، ووجدتُ أختيّ وأخي يجلسون متململين، يقلّبون قنوات التلفزيون، إسراء تريد أن تتابع الفيلم العربي، ومعاذ يريد أن يستمع إلى محاضرة دينية، وبين القطبين المتنافرين تولدت شحناتٌ متضادة كثيفة، ولما رآني الثلاثة لزموا الصمت، ونظروا إلى بعضهم، ثمّ نظروا إليّ بدهشة..

- عواشة!
- يا هلا! يا هلا!
- حياكِ عواشة!

يبدو أن وجهي كان ينم عن ذعر، فأنا.. منذ سنواتٍ على الأقل، لم أجلس مع جماعة، ونسيتُ كيف يمكن أن يكون الأمر مزعجاً.

- مساء الخير.
- مساء الخيرات!

ابتسم معاذ، ثم سأل بلطف:

- هل جعتِ أخيراً؟
- آه..

بدوتُ بلهاء بلا ريب، ازدردتُ ريقي وأتممت..

- نعم، جعت!

وابتسمتُ، فابتسموا.. هتف معاذ:

- "لا يطوفك" المحشي خطير!

وفي اللحظة إياها دخلت أمي، حاملةً صحناً مليئاً بلفائف المحشي، أعني: صحناً مليئاً جداً، تريد أمي - من كل قلبها - أن آكل جبلاً. لزمتُ الصمت، مجرد أنها انتظرتني لخمس أو ست ساعات بدون أن أبدي بادرة تجاه جهودها يجردني من أي قدرة على الاحتجاج على أي شيء، أخذتُ لفافةً في يدي وأكلتها، ولما أكلتها.. يا الله، لما أكلتها تذكرتُ بأنني من لحمٍ من دم!

- عجبكِ المحشي؟
- عجيب!

ولم أكن أمزح، كانت تلك أول مرة أحسّ فيها بالدماء تتدفق دافئة في جسدي، وأحسّ بأحشائي تستجيب لقوةٍ قاهرة من هذا النوع، أحسُّ بأنِ اللقيمات التي دخلت جوفي حطّت في قلبي، لا معدتي، وعرفتُ.. عرفتُ - بدهشة - كم كنتُ جائعة، وكم أمعنت في إنكار جسدي، وكان أقسى وأبهى ما فيِ الأمر، هو ذلك المذاق القديم، قدم الطفولة، كدتُ أنساه.. كدتُ أنسى رائحة الجدرانِ، وصوت الحمائم، وزهور الدفلى.. كدتُ أنسى بيت

الطفولة، شعرتُ بكهرباءٍ غرائبية تجتاحُني، وصـرتُ أحس بنفسي صغيرة وضئيلة وبيضاء من غير سوء.

- على مهلكِ عواشة!

قالت إسراء مبتسمة، يبدو أنني كنتُ آكل مثل حيوانٍ وحشيّ.. ابتسمتُ وأنا أحسّ بالحرج، فنهرتها أمي: خليها على راحتها! كلي يمه.. كلي! ورحتُ آكل، ليس فقط لأن جسدي اهتز بقوة، ولا لأن عروقي ابتلّت بعد تضوّر سنوات، ولا لأن الجوع الذي استوطنني صار أكثر وضوحاً، فبعد ثلاث أو أربع لقيمات كنتُ أحس بالارتواء وكان يمكن أن أكتفي، ولكنني شعرتُ بأنني آكل لكي أصغر، آكل لكي أتذكر.. كل لقمةٍ كانت تفتحُ أزقةً غير مأهولة في ذاكرتي، كل لقمةٍ كانت تأخذني إليّ أكثر، وأكلتُ حتى امتلأتُ.. وكان الجميع ينظرون إلي بصمتٍ، بدهشةٍ موجوعة، كان مرآي يثير الألم في نفوسهم، وبدأت ملامح أمي تنفرطُ، حتى تجرّأت ومسحت على زندي بيدها وهمست:

- كم أنتِ هزيلة!

وبعد أن أوشكتُ أن أنهي الصّحن كله، هتفت بحبور:

- سأضع لكِ المزيد!

ولكنني استوقفتها..

- شبعت! امتلأ بطني!

وكنتُ ممتلئة فعلا، ممتلئة بذلك الإحساس المريح، لم يكن ذلك غذاءً جسدياً وحسب، كان جرعةً من المحبة، وشعرتُ بقلوبهم تفيضُ وتغيضُ من أجلي وهم ينظرون إلى بعضهم، متألمين ومبتسمين:

- بالعافية!

15 أبريل 2011

الساعة: 7.11 صباحاً

خيّم صمتٌ لدقائق، وبقينا ننظر إلى بعضنا البعض، وكل محاولاتهم لخلق حديثٍ أجهضت مبكّرة، وشعرت بغرائبية الأمر، أمي وأخي وأختيّ.. هنا، في بيتي، نبذوا حيواتهم المهمّة وتكدسوا في عالمي. نظرتُ في أعينهم، وجدتُ سخطاً وألماً وبعض حُب، هم يريدون أن يعودوا.. يعودوا إلى العاديّ، إلى البسيط، إلى المكان الذي جاءوا منه، وجودهم هنا لم ينجح في انتشالي من (جنوني) المفترض وهم يعرفون ذلك جيدًا، من الصعب أن لا تلحظ كم الخيبة النافرة من تلكم الأعين، والوجوه التي تحدق في الأثاث البليد، كان بيتي نظيفًا، مرتبًا، مليئًا، على الطاولة المستديرة التي تتوسط غرفة الجلوس وضعوا مزهرية ملئى بزهور القرنفل الصفراء، اختيارٌ غير موفق! ابتسامةٌ صغيرةٌ ارتسمت على وجهي، هل كانوا يدركون المعاني العقيمة التي تضخها هذه الزهرة؟ أم أنهم، بلا وعي، قد عبروا عن دخيلتهم بدهاء؟ القرنفل الأصفر! يا له من اختيار.. "لقد خيبتِ أملنا"، كانت هذه رسالتهم غير الواعية من خلال تلك الأزهار، القرنفل الأصفر عنوان الخيبة والرفض.

- تبتسمين عواشة.

سألني معاذ بلطف.

- أزهارٌ جميلة!

قلتُ ساخرة.

- مريم اشترت الأزهار.
- فعلاً جميلة، شكراً مريم.

وكان ينبغي أن أصمت، أن أكون مهذبة بما يكفي لكي أصمت، ولكنني أحسستُ فجأة بأنني لا أملك هذا الترف، ترف الصمت والتغاضي، أن تملك وعياً حاداً بموتك يعني أن لا توافق على كثيرٍ من الأمور التي يهبها لك هذا العالم بغرض إيلامك.

- القرنفل زهرة الجنائز..

احتجّت مريم:

- لا ليست كذلك، إنها جميلة ومشرقة كالشمس.
- الزهور الصفراء تعني الغيرة، المرض، السأم، الحرية المفقودة، وإذا ما زاوجتِ الأصفر مع القرنفل فهو يعني الخذلان.

احتجّت إسراء:

- هذا غير صحيح!
- بلى.. أنا أعرف الكثير عن هذه الأمور.

تململت مريم:

- في الواقع أنا لا أظن بأن الناس يفكرون كثيراً في هذه الأمور.
- ولكن هذا غير صحيح.

ابتسمتُ بهدوء.

- هذه الأمور هي كل شيء، إنها كل شيء!

حياتنا تتمحور ببساطة حول تلك الخيارات الصغيرة: التفاصيل، الشعارات، الألوان المنتقاة، كل شيءٍ في هذا العالم،

كل شيء هو رمزٌ مبطنٌ وحزمةٌ من المعاني، كل شيء يخبرنا عنا، لون الفستان في الموعد الأول، لون المنتخب الوطني لكرة القدم، تسريحة الشعر، طلاء الجدران، النبتة الداخلية، ماركة قلم الحبر.. كل شيء وله معانيه، والآن هناك علومٌ تخبرنا عن الألوان الصحيحة لغرفة الجلوس، والألوان الصحيحة لغرفة النوم، إذا شعرتَ بالإعياء والخمول ارتدي قميصاً أحمر، إذا كنتَ تتوق إلى السلام الداخلي والهدوء اربط خيطاً أخضر حول معصمك، إن حيواتنا كلها تتمحور حول إيجاد المعادلة الصحيحة من هذه الخيارات الصغيرة لكي.. لكي نشعر في النهاية بأننا سعداء، وبأننا أحياء على أتم ما يمكن، كل هذا السعي الدعوب هو لأجل هذه الفضيلة الهزيلة، والباهتة، والمثيرة للشفقة، التي تسمى: حب الحياة.

- لا تعجبكِ الأزهار؟
- إنها ملائمة.. جداً!

وعلت وجهي تصعيرة سخرية مرّة، كانت دقائق السلام التي حظيتُ بها قبل قليل قد ولّت.

- لا بأس!

انتصبت مريم واقفة، حملت المزهرية بيديها وألقت بما فيها في سلة القمامة القريبة من المدخل، وهي تردد: لا مشكلة! لا توجد مشكلة! إذا كانت الأزهار لا تعجب عائشة فسنلقي بالأزهار ونرتاح! سنلقي بها الآن..

صمتت أمي، تآكلت في جلستها، بدت صغيرة وضعيفة وتائهة.. عادت مريم إلى الجلوس بعصبية وهي ترمقني شزراً..

- هل ارتحتِ الآن؟

- لا تكوني سخيفة، من السخف أن تفعلي ذلك بالأزهار، ليس ذنبها أنها خلقت صفراء!
- اللعنة على الأزهار، الصفراء والحمراء والسوداء! اللعنة على كل شيء، إذا كانت لا تعجبك سنرميها، سنحرقها إذا اقتضى الأمر، سندوسها بأقدامنا أيضاً، ولكن أخبرينا فقط ما الذي يعجبك وما الذي تريدينه! ولماذا كان صعباً عليكِ أن تتغاضي عن ثقافتك المريضة قليلاً وأن تجاملي أختك لأنها أحضرت لكِ أزهاراً ظننتها - لقلة ثقافتها - يمكن أن تضيء في هذا المكان وتريحنا من كآبته!
- أنا آسفة جداً..
- ليس ذنبنا أنك تعرفين كل شيء وتقرأين كل شيء، كما تعلمين.
- ولكنه أيضا ليس ذنبي أنكِ لا تقرأين شيئاً.
- آه لقد اكتفيت منكِ!
- كيف يمكن للمرء أن يتصرف جزافاً، بدون أن يفكر بالأمور؟ إن هذا الأمر يتطلب مستوىً عالٍ من التجاهل! من التغاضي عن الطريقة التي يتعامل وفقها هذا العالم، عن اللغة الكونية. كل ما نفعله يدل علينا، حتى الأشياء التي لم نقصدها.

تململت إسراء:

- أي لغة كونية يا عائشة؟ الأحمر حب والأصفر غيرة؟ لم أكن أعرف بأن الأمر على هذا القدر من الأهمية!
- إذا لم يكن بهذا القدر من الأهمية فلماذا تتكبدان عناء شراء أزهارٍ بالدرجة الأولى؟

وكررت مريم:

- أنا اكتفيت!

وعقبت إسراء:

- وأنا أيضاً اكتفيت، لا شيء يعجبك، لا شيء يفلحُ معكِ..

تمتمت أمي: خلاص يا بنات.

ولكنني كنتُ قريبة جدا من أن أنجح في إخراجهم من بيتي!

- لماذا أتيتم إلى هنا؟
- أتينا لأجلكِ.

قال معاذ، وقد بدا لأول مرة غاضباً جداً، يحدق في وجهي بلا رحمة.

- وماذا تظنون بأنكم ستفعلون؟
- لن نفعل شيئاً يا عائشة، نظن بأنك لستِ بخير، ونريد أن نكون إلى جانبك.
- وما الذي تغير؟ منذ أربع سنوات وأنا لستُ بخير، وربما قبل ذلك، وربما طوال حياتي، أنا لم أكن قط.. بخير، فلماذا أتيتم الآن؟

انفجرت دمعةٌ في عينِ أمي.

- حبيبتي يا عائشة، لا تقولي هذا الكلام.
- ولكنني لستُ غاضبة منكِ يمه.. لستُ غاضبة من أيٍ منكم! فأنا لا أطاق، ومعاشرتي مستحيلة!

برطم معاذ:

- هذا غير صحيح عواشة.

تدخلت مريم:

- بل صحيحْ، إنك تؤذين أمي، ولن أسمح بأن تجعلي من نفسك ضحيةِ الآن، لقد فقدتِ ولدك وقلوبنا تتمزق من أجلكِ، ولكنك مع ذلك حظيت بولد، لخمس سنوات، فهل فكّرت في ذلك لحظة؟ هل فكّرتِ لمرة بأنك كنت أوفرنا حظاً؟
- أنا؟
- أنا لم أحظَ بنصف ولد حتى، عواشة، كل أطفالي يولدون أموات.

واغرورقت عيناها بالدموع، فأردفت إسراء بصوتٍ استعراضي جهور:

- وأنا لم يدم زواجي إلا شهرين، أقصد.. 57 يوماً!

وأتبعتها بضحكةٍ مجلجلة.

ازدردت مريم ريقها وتابعت..

- ومع ذلك تحتكرين كل الألم لنفسكِ، تتصرفين كما لو أنك وحدكِ تتألمين.. وتمعنين في هجرنا، والآن وبعد أن أقحمنا أنفسنا عنوة في حياتك، مطالبين بحضورٍ هو من حقنا أصلا، نجدكِ تمعنين في انتقاد اختيارنا للأزهار!

وتابعت إسراء:

- أنتِ تتجاهلين كل شيءٍ عمداً، كل ما تملكينه.. كل ما هو لكِ، أمك وأخوتك وزوجكِ وعملكِ وبيتكِ الجميل! كل شيء..

مريم:

- والآن تقولين بأنك لم تكوني بخيرٍ قط! أنا مستعدة لدفع نصف عمري مقابل أن أحظى بحياتك..

- أنا لا أريد حياتك، أريد زوجكِ فقط!

ضحكت إسراء، ولكزها معاذ بكوعه لكي تكف عن المزاح، وكانت الدموع قد ملأت مقلتيّ، وغام العالم في ضباب كثيف.. كان انكشاف الألم القابع في أختيّ ضربة قاصمة، أن تكتشف - على حين غرة - ألم الآخر الذي يضاعفه الخيال وترجعه مئات الأصداء[31]، يباغتك محطماً أسوار عزلتك، أن تكتشف فجأة وعياً غير وعيك، وجوداً غير وجودك، وأنت الذي تتعاطى طوال عمرك مع كيانك الخاص بصفةٍ مطلقة، ثم تبدأ فجأة في اكتشاف حدوده ونسبيته!

- نحن عائلتكِ يا عائشة.

همس معاذ.

- نحن عائلتك، لا يسعنا إلا أن نتصرف على هذا النحو، وإذا كان الشيء الوحيد الذي يمكننا فعله هو أن نجلس هنا، في غرفة الجلوس، ننتظر أن تخرجي من غرفتك حتى نقوم بإطعامك، فهذا ما سنفعله.
- ولكنني لا أريد.
- لا يسعك أن لا تريدي يا عائشة، أمر الله غالب، ونحن أكثر عناداً مما تظنين.
- ولكنني بخير، أنا فعلاً بخير، إنني سعيدة، ولا أحتاج إلى أحد.. لا تضيعوا وقتكم هكذا، الحياة تنقضي بسرعة! إنني أعيش للمرة الأولى في حياتي على النحو الذي أريد، ولا يسعني أن أتذمر الآن، وقد حظيت أخيراً بكل ما أحتاجه.. كل ما أريده هو أن أكتب، وبوجودكم.. أصواتكم.. شجاركم.. لا يسعني ذلك على

نحوٍ جيد، لذا.. أرجوكم عودوا، وكونوا مطمئنين، فأنا بخير ولا أحتاج إلى أحد.

- ولكن هل خطر لكِ عواشة بأننا نحتاج إليكِ؟
- هذا غير صحيح.

تحشرج صوت أمي: بل صحيح عواشة، والله صحيح!

- لا يمكن أن يكون صحيحاً.
- بل صحيح! أنتِ ابنتي، وأنا أحتاج أن أراكِ وأسمع صوتكِ و..

همست مريم بصوتٍ حانقٍ يشبه الفحيح:

- لقد دفعتِ أمي إلى البكاء!

تدخلت إسراء:

- منذ الحادث الأخير وأنتِ تمعنين في هجرنا، ما ذنبنا؟ ما ذنب أمي؟
- أنا لم أهجركم.
- أنتِ لا تتصلين، لا تسألين عن أحوالنا، لا تزورين أمي إلا خطفاً، وإذا ما اتصل أينا بكِ تعذرتِ بانشغالاتٍ كاذبة: عدنان في البيت لا أستطيع الخروج! يا لها من كذبة سخيفة عواشة، منذ متى وأنت مهتمة بمشاعر عدنان؟ كل ما تريدينه هو أن نتركك وشأنك!

وأطبق صمتٌ ثقيل، شعرتُ بقلبي يغوصُ عميقاً، عميقاً، لم أكن أرغب بفضح حقيقتي، ولكنني لم أستطع إلا أن أكون على نفس درجة الصدق الدائرة في الحوار..

- فاقد الشيء لا يعطيه.
- ماذا قلتِ؟
- فاقد الشيء لا يعطيه.

- ماذا يعني ذلك؟
- يعني.. فاقد الحب لا يعطيه، لا يعطيه!

لقد أشهرت إفلاسي، وأقمتُ الحجة عليّ، وأكدت جميع الاتهامات المسددة صوبي، "رفعت الأقلام، وجفت الصحف".

15 أبريل 2011

الساعة: 8.30 صباحاً

- يومٌ واحد فقط، امنحينا يوماً واحداً فقط.. وسنتركك وشأنك.
- صحيح؟
- نعم، صحيح.. نريد منكِ يوماً واحداً، يوماً كاملاً تقضيه معنا، بلا كتابة ولا اختباء.. ثم سنحمل حقائبنا ونغادر.

كان عرضاً مغرياً. يوم واحد، من بقية ثلاثة، يومٌ لهم ويومان لي وينتهي الأمر، ينتهي الأمر حقاً! ولسان حالي يردد أبيات طرفة بن العبد:

فإن كنت لا تستطيع دفع منيّتي

فدعني أبادرها بما ملكت يدي!

الساعة الآن جاوزت الثامنة والنصف، وهم ينتظرون في غرفةِ الجلوس.. ينتظرون أن أخرج، لكي أفي بجانبي من الاتفاق، لكي نمضي اليوم معاً.

16 أبريل 2011
الساعة 10 صباحاً

ثمة زمنان. زمنٌ يعاش، وزمنٌ يكتب. زمنٌ يستهلك، وزمنٌ نجففه في حروفٍ وكلمات. ثمة لحظة النص، التي تتفجر فيها التجربة على الورق، حروفاً حروف.. وثمة لحظة اللحظة إياها، عندما تكشف الحياة عن وجهها، وتجبرنا على النظر إليه.

حياتي الآن، حياتي في الأيام السبعة الأخيرة من حياتي، هي رقصٌ بين الزمنين، وقد أضحت سخية معي بالتجارب، فنظراً للسنوات الأخيرة من عمري، لا أعتقد بأن عالمي قد اكتسب الكثافة والثقل الذين يتمتع بهما الآن، الآن وقد أوشك كل شيءٍ على الانتهاء.

أحس بأنه بات عليّ أن أبذل جهداً خاصاً لكي أكابر، لكي أدعي بأن النهاية لا تبث في داخلي هذا الإحساس العارم بالأسى، لكي أدعي بأنني لم أتغير، بأنني أنا نفسي، التي ابتدأت كتابة هذه المذكرات والتي تحاولُ إتمامها الآن. كل شيءٍ مؤلم، كل بقعة من روحي، وكل عضو في جسدي، كل خلية كل ذرة كل نواة كل إلكترون كل فوتون.. إنني أشعّ حزناً على نحو غير قابل للنقض، وكبرياء المغادرة ما عاد من حقي.

أحس بالألم في كل ما أراه، ما أشمّه، وما أسمعه. الصمتُ المستشري.. مؤلم، الأثاث البليد الذي يرمقني بحيادٍ.. مؤلم، شاشة التلفزيون مؤلمة، النافذة مؤلمة، الستائر مؤلمة، الشرشف

المرتب مؤلم، المزهرية الفارغة مؤلمة، هاتفي الذي لا يرن يؤلمني، أسفل رقبتي يؤلمني، الفراغُ الشاسع في صدري يؤلمني، الثقوبُ في روحي، الشرخ في جدارِ غرفة الغسيل، المطبخ الذي تفوحُ منه رائحة الدهن، مربعاتُ السيراميك، صنبورِ المياه الذي يبكي بين كفيّ، كل شيء.. كل شيء.

لقد عاد كل شيءٍ إلى ما كان عليه، المكان أخرسٌ واسعُ العينين، الجدران متواطئة بخبث، الماء في قاع المزهرية آسنٌ ويحس بالوحدة، الكأسُ المشروخة، والوجه المكسور في البرواز.

أحاولُ عبثاً، أن أعود إلي، إلى أناي القديمة، قبل أن أجرب العالم، قبل يوم أمس. من كان يظن بأن يوماً واحداً تقضيه خارج خارطة ألمك الذي اخترت بملء وعيك، كفيلٌ بتغييرك على هذا النحو؟

لقد كان يوماً عادياً، وأن تمضي يوماً عادياً إلى هذه الدرجة، يشبه أيام الأناس الآخرين، يجعلك تشعر كم هي حياتك.. شاذة وغير عادية! أن تجلس في المقهى وتتحدث عن كل شيء، وعن لا شيء، وأن تتمشى على شاطئ البحر حتى اندلاع الفجر، وأن تأكل في أربع مطاعم مختلفة في يوم واحد.. هكذا كان يوم أمس.

...

الكتابة تعاسرني اليوم، أعتقد بأنني ما زلتُ في التجربة، ولم أخرج إلى زمن الكتابة، أضغاث يوم أمس تحاصرني تماماً، والكلمات بعيدة مثل نجوم.

16 أبريل 2011

الساعة 11:45 صباحاً

غفوتُ، غفوتُ لخمس دقـائق، وجـدتُ الكتابـة عصـية والذكرى بعيدة، وبدا لي وكأن قوةً قاهرة قد سـرقت روحـي، وزجّت بها في شوارع مهجورة، رأيتني أركضُ وألهثُ، الظمأ يشتعل في مسامي، والخوفُ.. كنتُ قد دفنته في الصـحراء، أو تركته هناك، من هو؟ أو ماذا هو؟ لا أدري ماذا حدث.. مـاذا حدث قبل أن أراني أركضُ، كنتُ أهرب، كنت أهرب من شيءٍ مخيف، شيءٌ مخيف فعلته أنا؟ أركض وثمة أصواتٌ تنـاديني ولكنني لم أتوقف لحظة واحدة، لا أثق بالأصوات، الأصوات لا تحبني، الأصواتُ مخيفة. لهاثي يتصـاعد، وقـواي تنضـب، ولكنني بعيدة الآن، بعيدة عنه، عن رائحته، عـن الأصـوات، المكان ممتلئ بالغرباء، خطواتي تتباطأ، من ركضٍ إلى هرولة، من هرولة إلى مشي، ومع كل خطوةٍ كان تعبي يتفاقم، وأحـسّ بي أكبرُ، ولكنني أيضاً كنتُ أتضاءلُ، وأنكمشُ، وأصيرُ طفلـةً بروحٍ كهلة، صغيرة أنا، هشةٌ وخائفة والذعر يملأ عيني، ولكن الحزن في روحي قديم، أراني من خارجي، وأراني من داخلي: أرى اختلاجات وجهي وأسمع الدوي في قلبي. أصغر، أصـغر أكثر، أصغر أيضاً. أنا طفلة في العاشرة، أنا طفلة في السادسة، أنا طفلةً في الثالثة، أهبطُ على ركبتيّ، أحبو، مشاعري تشـيخ، جسدي يصغر. أحس بتضـارب الجسـد والـروح، الطفولـة

والكهولة، قلبي ساحةُ المعركة.. ها أنا، أصغر مما يجب، أضعف مما يجب، لا أستطيع الحبو، أراني، ممددة على ظهري، في قماطٍ أبيض، متسخ، مغبر، مرمية على الأرض مثل لقيطة، من رماني هنا؟ أنا لا أتجاوز الشهرين من عمري. بكائي يصمّ الآذان، الغرباء يمرون بي، لا أحد يلتفت، لا يرون تلويحات يدي ولا يسمعون صراخي، أقدامهم طويلة وقاماتهم فارعة، يعبرونني كما لو كنت عتبة، يمضون كالمسرنمين، بلا وجوه، بلا ملامح، أنا وحيدة، هشة، ضعيفة، خائفة، بردى، جائعة.. بكائي كثير، الوحدة قارسة، أقسى من أي شيءٍ، أحدهم ينتبه إلي، يراني، يده تمتد نحويٍ.. إنه يحملني، إنه ينظر في وجهي، آه.. إنه يتعرف عليّ أيضاً، بخيبة أمل يصعر خده ويقول: آآه، إنها أنتِ..

أرى في الغريب الذي التقطنيٍ وجه الطبيب النفسي، أخافُ أكثر، أرفس وألوّح، روحي ترفرفُ بين جوانحي تريدُ أن تطير خارج صدريٍ: خارج الوجه الشاهد على الذنب.. تنفرجُ شفتاه، بصوتٍ ثقيل وعامر بالحزن يقول: فاقد الشيء لا..! عندما قال ذلك، وهمّ بإعادتي إلى الأرض الباردة، أطلقت صرخة مدوية.. ويوم صرختُ وجدتني هنا، خدي ملطخ بحبر الصفحة الأخيرة، ولم أكن قد غبتُ إلا دقائق.

16 أبريل 2011

الساعة 2:11 مساءً

أفزعني الحلم، جعلني أنتبهُ لوحدتي، جعل رحيلهم يبدو مباغتاً وغير مفهوم، كان يفترض- عندما أخرج من غرفتي - أن أرى وجه أمي ينكسر في وجهي، وهي متربعة في غرفةِ الجلوس، تحيكُ مفرشاً بالكروشيه وتتملى في شئوننا في دخيلتها. كان يفترض أن يكونوا هنا، من أجل لحظةٍ كهذه، أعترف فيها بضعفي، وأرغب فيها بالتكوّر والاختفاء، في حفرةٍ عميقة، في قبرٍ رؤوم، أو في حضن أمٍ إن أمكن.

أحتاج أن أنتبه إلى الأشياء التي تتغير فيّ، فهذه المستجدات التي تعتريني تربك عالمي، وأنا الآن أعضّ على يديّ لأنني دفعتهم للرّحيل، ورغم أنني أستطيع أن أتصل على أمي الآن واللحظة، وأطلب منها أن تجيء، بقدر ما أستطيع أن أركب سيارتي وأن أمضي إليها، وأرتمي بين يديها، إلا أن جسدي متخشّب، وروحي سحيقة مثل بئر، وقلبي مذعور، إنني تجسيد حيّ لكابوسي الخاص، ولا أستطيع أن أوقف هذا الزحف الوئيد للكلماتِ، فالكتابة باتت تتملكني وأنا رهنُ اعتقالها، سأكتب، سأدخل مضمار البكاءات الطويلةِ وأكتب..

الكتابة شكلٌ من أشكال الاعتراف. أو على الأقل هذا ما تبدو عليه الآن، بات مستحيلاً عليّ أن لا أعترف بخوفي، إنني أرتعد، كل جزءٍ مني يرتعد.

يقولُ الفيلسوف الهندي سينكا: إن من لا يملك إرادة الموت، لا يملك إرادة الحياة! وهنا يخنقني السؤال: إن لم تكن عندي إرادة للحياة، فهل هذا يعني أنني لا أملك إرادة للموت؟ وإن كنت أملك إرادة للموت، فهل هذا يعني أيضاً بأنني أريد الحياة إلى حدٍ ما؟ بأن مشروعي العدمي هذا هو محض تزييف؟

...

...

لقد عاد عدنان. أسمع صوت المفتاح في القفل، صوت حقيبة يده يلقيها في صدر المكان. أسمع صوت عودته.. عودته جاءت لي براحةٍ غير معهودة. لقد فعلوا خيراً عندما طلبوا منه أن يعود. وهو فعل خيراً بي عندما لم يكترث كثيراً بإهاناتي، ولكنني مع ذلك لا أترك القلم لأحييه، بل أحييه هنا، في الكتابة، في جنتي وجحيمي وعلة موتي وحياتي. لقد أوشك كل شيءٍ على الانتهاء يا صغيري، فلتقرّ عيناً، فهل ستبكيني؟ أو ربما ستنزل إلى العالم السفلي لاستنقاذي كما فعل أورفيوس لزوجته.. إنني مليئة بأفكار لا تشبهني! أليس غريباً؟

...

...

لقد حيّاني. يا له من زوجٍ استثنائي، يتمتع بروحٍ رياضية غير معهودة! سألني إن كنت قد أكلتُ شيئاً، فقلتُ له بأنني لا أشتهي شيئاً.. تركني ومضى. يبدو أنه قد جاء إلى هنا بنية أن يقوم بدور الممرض، للزوجة المجنونة التي هي على وشك الرحيل. أرى في عينيه وجعاً، أرى في عينيه فجيعة.. هل يحبني؟

إنني أبكي الآن، دموعي تصبّ صباً.. كم أنا نموذجية في حزني: أبكي، أنشق، أمسح أنفي بأكمامي، أدفن رأسي تحت الوسائد، أعض الوسادة، أخافُ أن تتسرب صرخة. إن ما يحدث لي، هو بجميع الأحوال: نكوص. إنني أصبأُ عن شهوةِ الموتِ، أرتدّ عن عدميتي، وأن تتخلى عن مبادئك بعد كل هذه السنوات، بعد ثلاث ميتات مخيفة ومربكة.. فهذا أيضاً مؤلم، يشبه ألم المرتد عندما يخلعُ نفسه عن جسدِ الجماعة، يشبهُ فجيعة المؤمن عندما تخذله عقيدته. عقيدته التي تأخذه إلى حتفه مباشرةً.. ليس سهلاً أبداً، هذا النكوص، إنه أصعب من الإيمان ألف مرة.

ما الذي يجري لي؟ كل هذا بفضلكَ يا معاذ، أنت وأسئلتك الكريهة، أنت وذكاؤك المزعج وقدرتك العجيبة على تفسير الأشياء ومنطقتها مهما بدت غريبة وشاذة مثل ثلاث ميتاتٍ حدثت في نفس التاريخ. لقد جعلني واضحة أمامي إلى حدٍ أرغب معه بالتقيؤ. هل أنا على هذا القدر من البساطةِ حقاً؟ لقد سرق غموض الفكرة، بمعنى آخر: سرق روحها. لم يعد ثمة ما هو شعريٌ أو جميل، في موتي الوشيك بعد يومٍ ونصف..

...

...

الطيّب عند ذكره كما يقال! لقد اتصل لتوّه، تحدثنا لدقائق، وبكيتُ بصمتٍ وهو استمع إلى صمتي، قال تريدين أن آتي وأخذك لنتمشى مثل يوم أمس؟ قلتُ لا، لم أفرغ من الكتابة. قال ستفرغُ عافيتك قبل أن تفرغ كتابتك.. قلتُ له "فدوة".. وصمتنا، قال: لن تموتي يا عائشة إلا إذا أردتِ ذلك. لم أردّ، لم أعد أصدّق حججي. لا أريد أن أموت هكذا، لم أخبرهُ طبعاً.. قلتُ له: عدنان رجع، قال مبروك، لا تسمحي له بالنوم في الصالة..

قلتُ له ينام في المكان الذي يريدْ، لن أوجه له بطاقــة دعــوة.
قال: أنتِ لئيمة قليلاً هل تعرفين ذلك؟ ابتسمتُ له وقلت: قليلاً..

ثم صمتنا، صمتنا لدقيقتين ربما.. وأخيراً قال:

- أحبكِ عواشة.

وأنا، اختنقتُ في دمعةٍ كبيرة ولكنني مع ذلك قلتُ له..

- وأنا أحبّك.
- لا تبكي يا أختي.
- أبكي لأنك خسيس تعرف كيف توجع قلب أختك.
- أنا خسيس وأنتِ لئيمة..
- وعدنان مشرّد.

ضحكنا..

16 أبريل 2011

الساعة 3:55 مساءً

بالأمس مشينا بمحاذاةِ البحر، امتلأنا بالنسيمِ الربيعي، أمعنّا في البحث عن الجميل، لكي نسلط عليه انتباهنا. لقد تعمّدنا ذلك.

كنتُ أريد أن أحافظ - على الأقل - على كبريائي إذ أنا أولي ظهري لهذا العالم، ولكن ما حدث بالأمس، وأنا أرى الكويت بحراً وضوءاً ونسيماً، وأرى يد أخي تلتفّ على ذراعي غصباً عني، حتى وهو يعرف بأنني لا أحب أن يمسكني أحد/أن يلمسني أحد، كان عنيداً وراسخاً وثابتاً و.. ما كان أروعه، وهو يخبرني في كل لحظة بأنه موجودٌ لأجلي! كل حصوني/قلاعي/أسواري/أخاديد عزلتي، كل شيءٍ ينهار أمام لمسة يد، كل هذا العزم على النأي والإصرار على الموت هل هو تعبير عن الوحدة؟ ياه يا عائشة، أمورك انقلبت على عقبيها، ومشروعك العدمي هذا ليس إلا تزويراً لأكثر حقائقنا البشرية بساطة وابتذالاً: حاجتنا إلى الحب.

الحب، العائلة، الحنان؟ الكلماتِ التي كنتِ تقولين بأنها مكرورة ومستهلكة ومملة، لماذا كنتِ تتكبرين على حقك الطبيعي بأن تكوني محبوبة، وأن تحبي؟ ها أنتِ اليوم، تتذكرين قبضة يدِ أخيك، والصدر الشاسع لزوجك، والحضن الدافئ لأمك، تتذكرين أوطاناً صغيرة كانت متاحة على الدوام ولكنك - يا عائشة - تؤثرين المنافي عن سبق وعيٍ ورغبة! لم تكن حياةً

جيدة، اعترفي بذلك وحسب، ثلاثٌ وثلاثون سنة من الهدر، ولهذا أنتِ غير آسفة، ولهذا أنتِ تظنين بأن في الموتِ خلاصك، ولكن ماذا لو وهبت لك الحياة يا عائشة؟ ماذا لو حدث ذلك؟ أين تولين وجهك؟

ها أنتِ تشيحين بوجهكِ عن السؤال، ترتبكين لأنك لا تملكين خطة بديلة، سيكون رحيلك نهائياً هذه المرة، ولكنك الآن تكتشفين احتمالاتٍ صغيرة ولطيفة للحياة، تكتشفين الأثر السحري للمسةِ يد، تكتشفين البحر والنسيم والسحب، وأضواء المدينة الليلية ترقصُ على صفحة الماء، يقول معاذ بأنها تشبه "سبائك من ذهب"، وتقول مريم بأنها تشبه: "ترتر" فستان سهرة، وتقول إسراء بأنه البحر وقد أصيب بالجدري الضوئي، وتقول أمي.. أمي لم تقل شيئاً، كانت تبتسمُ ساهمةً كشأنها، وجعها يفضحها وصوتها مشروخ، ولكنها مع ذلك تبتسم، أمك تبتسم رغم أنها عانت في أمومتك أضعاف معاناتك في ولدك، كنتِ الابنة العاقة بامتياز، المنكفئة على صمتها وعزلتها ورفضها، كل الجسور الممدودة صوبكِ رفضتها، وليلة أمس.. لم تكوني لتحظي بها لولا تلك الصفقة، يومٌ معكم مقابل رحيلكم! يا لكِ من قاسية يا عائشة، كل هذا لأجل أن تكتبي؟ اكتبي إذن.

صباحَ الأمس، كنت معهم في مقهى، والعالم مشرقٌ، والموسيقى الصباحية هادئة ومسالمة، كنا نطل على البحر، لأن معاذ يعتقد بأن الله قد أودع في البحر قدرات علاجية، هو يأمل بأن يمتص البحر "جنون البقر" الذي انتابني على حد قوله، أسمعُ التسمية الجديدة لمرضي (المفترض) وأضحكُ..

- إذن، أنتِ تظنين بأنك ستموتين بعد يومين؟
- نعم.

- في أي ساعة؟
- ميتاتي السابقة حدثت في ساعاتٍ مختلفة، قد يحدث الأمر في أي وقت.
- وهذا لا يزعجك؟
- الأمر في الواقع مريحٌ قليلاً، فأن لا تعرف ساعة موتك بالضبط يعني أن تموت كالآخرين، بدون أن تكون منتبهاً.
- أنا أقول.. خلينا ناخذك لمطوّع يقرا عليك أبرك.

ضحكت مريم بحياء، وابتسمتُ أنا حتى بانت نواجذي.. لم أنزعج للأمر، فأن يحدثني الآخرون عن موتي، ولو من باب الفضول، دليل على أنهم بدأوا في قبول احتمالية الفكرة، بعد رفضٍ امتد سنوات، أدى إلى صدوع مؤلمة في علاقاتنا.

- عواشة!

هتفت إسراء..

- إذا متّ سلمي لي على أبي.

كانت تتعاطى مع رحيلي كاحتمالٍ قائم، ضئيل ومجنون ربما، ولكنه قائم.. أن ألتقي بأبي، أن ألتقي بولدي..

- فالك ما قبلناه!

قالت أمي موبخة..

- يمه هي إلي تقول..
- انطمي! ولا كلمة!

وضحكت مريم، مرة ثانية، ضحكة شامتةً، وهي تلكز إسراء بيديها.. التفت أمي إلي، رأيت في عينيها دموعاً تلمع:

- أنتِ تعرفين معنى أن تدفن الأم ضناها؟

كان سؤالاً فاحشاً في صداه.

- أنتِ جرّبت هذا الألم يا عائشة..

ونكصت رأسي، لأداري فجيعتي بعزيزٍ التي لا تهـرم ولا تتقادم.. انشغالي بأمومتي أنساني بأن لي أماً!

- لماذا تريدين مثل هذا الألم لأمّك؟

ولم أعرف بماذا أرد، سالت دمعةٌ وحيـدة مـن عينـي، مسحتها بسرعةٍ بطرفِ كُمّي، وأشحت بوجهي صوب البحر، ما له لا يمتصّ آلامي وآلام أمّي؟ كانت تلك أول مرة أنتبـه فيهـا لعقوقي، فأردفتُ:

- يمه.. أولأولي

أشارت بيدها كي أصمت، لم تكن تريد رداً، وبحزمٍ حسمت الأمر..

- لن يموت أحدٌ منكم قبلي.. تدفنوني أولاً، ثم تموتـون كما تريدون.

وبدأوا يرددون معاً: العمر كله يمه، الله يطول لنا بعمـرك يمه! وأنا أنظرُ، إلى الخوفِ في عينيها، وأكتشف الأذى الـذي ألحقته بها.. فيم أختيّ وأخي ينهالون علـى يـديها بـالقبلات، وعبارات تطييب الخاطر، وأنا متخشبة في مكاني مثـل تمثـالْ أصمّ..

هذه - إذن- هي نتيجة ولعي بفكرة الموت؟ تبتلـي فـي محرابه؟ عزلتي الاختيارية وكتبي ذات الأغلفة المرعبة، هـذه هي نتيجة مشروع التناهي الذي أتبناه؟ أن تدور عجلةُ الألم، أن تثكل أمي، أن أكون ابني الذي ضاعٍ، وتكون أمي هي أنا التـي فقدت ضناها، أن أورث عائلتي ألماً مثل ألمي؟

عندما تبنّيتِ موتك يا عائشة، مثل أيـديولوجيا أو عقيـدة، عندما انتميتِ إليه، كنتِ تظنين بسذاجة بأنك وحدك، في معزلٍ

عن هؤلاء، وها أنتِ تتعرفين الآن على الأصداء التي يرجعها ألمك في صدورهم، تكتشفين - لأول مرة في حياتك - وجودهم! فهل ما زلتِ عند رأيك؟ وهل ما زال لك رأيٌ في الأمر؟

16 أبريل 2011

الساعة4 :2 6 مساءً

معاذ لم يكن ليصمت أبداً، لم يكن ليقبل بـــالأمر. عنـــدما اقترح أن نتمشى قليلاً على كورنيش شارع الخليج العربي، كان يخطط لسؤالٍ جديد. نأى بي بعيداً عن أمـــي وأختـــيّ، أحـــاط ذراعي بقبضته وسألني:

- أريد أن أسألكِ سؤالاً..
- اسأل.
- هل خطر لكِ قط بأنك قد برمجتِ نفسكِ على الموت؟

ونظرتُ إلى وجهه نظرةً بلهاء وأنا أشعر بأنـــه يتحـــدث رطانةً لا أفقه فيها حرفاً. ما هذه الهرطقة؟ أنا.. أبرمجُ نفســـي على الموت؟ وهل أملك هذه الموهبة حقاً؟

- هل تفاجئك هذه الفكرة؟
- الفكرة تبدو سخيفة جداً.
- بالتأكيد ستبدو سخيفة، طالما أنها لا تخدم قضيتك.

ورغم قسوة ردّه، إلا أن يده قبضت على ذراعي برفـــق، كان الحنان في لمسته يرمم فداحة السؤال، وإحساسي بـــالعري، وتذكرت عدنان.. بشيءٍ من الأسىِ والامتعاض المزعج.

- عدنان يظن بأنني حاولتُ الانتحارْ.
- عدنان مخطئ، أنتِ لم تنتحري صراحة.
- هل هذا يعني أنني انتحرتُ تلميحاً؟

- بالضبط، انتحرتِ تلميحاً..

وردد الكلمة وكأن التعبير أعجبه، وأنا أيضاً.. أعجبني، أن ألمّح للكون برغبتي بالموت، وأن يستجيب الكون لرغبتي. انتحارٌ مبطن ومجازي ومستتر! هل يمكن ذلك حقاً؟

- هذه هرطقة..
- بحكم أنني "مطوّع".. الهرطقة عندي تعني شيئاً مختلفاً تماماً.

وساد صمت.. كان - على الأرجح - يحاول ترتيب أفكاره، وأنا كنتُ أحاول بعثرتها.

- إذا كنت أتحدث معكِ اليوم، وجزء مني يصدّق بأن أختي الغالية ستموت بعد يومين لأسباب غامضة، في ذكرى وفاة ابنها.. إذا كنتُ قد قبلتُ على مضضٍ وكراهة أن أتجرع مرارة هذا الاحتمال، وأن أحادثك بالأمر معترفاً بإمكانيته، لأن كل الأمور ممكنة فعلاً، وليس لأنني أقبل بحدوثه.. ما أحاولُ قوله هو بما أنني قدمت كل هذه التضحيات من طرفي، وقبلت بأن أتحاور معك حول فكرة أرفضها جملةً وتفصيلاً، فالأولى بكِ أن تضحّي أنتِ أيضاً بموقفكِ المسبق، وأن تصدقي بأن الأمر محتمل، وهو من وجهة نظري منطقي جداً وقابل للتصديق.

وأطبق الصمتُ مرة ثانية، أرسلت عينيّ للأزرق البعيد، كان البحر يريد ابتلاعي، وكنتُ أريد ذلك أيضاً. سرنا لخطواتٍ، ذراعانا متشابكان، وأفكارنا تتواشج، ونسمعُ صوت ضحكات ومزاح مريم وإسراء، ونسمعُ أيضاً - كالعادة - صمت أمي.

- نحن نعرفُ القليل عن قوانا..
- ..
- لو عرفنا قدراتنا حق المعرفة، لأخافتنا على الأرجح. أعني، أنظري إليكِ.. إلى ما فعلته حتى الآن.. وقدرتك الرهيبة التي تجر الموت من أذنيه.

حسمتُ الأمر.

- أنا لم أفعل شيئاً من ذلك.

وبسرعة أضفتُ:

- كل ما في الأمر أنني فقدتُ ولدي.
- ما أكثر الذين فقدوا أطفالهم يا عائشة، لم يمت أي منهم ثلاث مرات..
- ولكنني لست أياً منهم.
- وماذا نفهم من ذلك؟ أنك تحبين ولدك كما لم تحب أم ولدها أم..

أشحتُ عنه، شعرتُ بالغصة تتكور في حلقي، دموعي تسيلُ داخل جدران صدري، بكائي عميقٌ وصامت وملتبس، ليتني كما قالْ.

أردف بعد تردد:

- أم أنك..
- آثمة؟
- وهذه أيضاً، بحكم أنني "مطوع" كلمة كبيرة جداً.

قال ذلك، ثم أراح رأسي على كتفيه، وشعرتُ بالدموع تسحّ من عينيّ بسخاء.. جلسنا على الدكة الإسفلتية، البحر من ورائنا وشارع الخليج من أمامنا، اقتربت منا مريم وإسراء..

- ما الأمر؟

رد معاذ سريعاً..

- لا شيء، نستريح فقط، تعبنا من المشي.. حرام يعني؟!

وبسرعة قرأتا في وجهه أن: ارحلا! أمي أيضاً، نظرت إليّ بطرف عينيها وتصرفت كما لو أنها لم تنتبه إلى حضوره، حضوره العزيز ملء دموعي.

- نسبقكم؟

سألت وكأنها لم تنتبه لدموعي..

قال معاذ:

- اسبقونا يمه، نلحق بكم بعدين.

ومضوا.. كان ينظر إليّ بشفقة لم يجتهد كثيراً في سبيل إخفائها. إن ألمي يؤلمه، ولكنه لا ينوي تخديري من هذا الألم بأي شكل، ولعل كل ما يريده، من هذا اليوم الذي قايضني فيه برحيلهم جميعاً، أن ننتهي إلى هذه الدقيقة، حيث هو يحاولُ، بذكاء ملحوظ، أن يسمي الأشياء بأسمائها، وأن يعلل الموت بعلله، وأن يجعل الأمر منطقياً وقابلاً للتفسير..

- هل ترغبين بالمشي؟

- لا..

- لنجلس إذن.

وجلس إلى جانبي، وسهونا قليلاً، ونحن نرى السيارات العابرة، تقطع وجه المكان، ينبعثُ منها زئير ترتجف له الأمكنة.

- هذا أجمل شوارع البلاد..

- صحيح..

قلتُ ساهمة بدون أن أمحص كثيراً فيما يقوله، واستمرّ هو في الكلام، كان يعدّدُ مناقب المجمعات التجارية الجديدة التي لم

تطأها قدماي، مجمع الأفنيوز الأكبر في الشرق الأوسط؟ كل شيءٍ في هذا العالم سباق! ثم شرع يقارن الخطوط السريعة ببعضها، وتحدث طويلاً عما يحدث في العالمِ هذه الأيام، عن ربيع الثورات العربية كما يسمى، وقال بأن الأمور لن تعود أبداً إلى ما كانت عليه، وبأن العالم كما نعرفه لن يعود له وجود، وأنه سعيد لأنه يعيش في هذا الزمن، زمن لا يخاف فيه الناس من التغيير. نعم، نعم، كنتُ أردد وحسب.

يبرمج الإنسان نفسه على الاستيقاظ مبكراً، على نوم الظهيرة، على الجوع في ساعاتٍ محددة، على التفاؤل باللون الأخضر، على تذكر حادث معين من رائحة معينة.. أليس هذا أقصى ما يمكن أن تفعله البرمجة؟ ترى هل أملك القدرة على برمجة جسدي على الموت في تاريخٍ معين؟ لو صح ذلك لانتفى كل شيء! الاحتمال قائم لأنه لا حق لي في إنكار وجوده، ولكنه مع ذلك غير معقول، أقصد: غير مقبول!

- البرمجة العصبية هرطقةٌ من هرطقات العولمة.

قلتُ، بما يشبه التوبيخ..

- ماذا قلتِ؟
- البرمجة العصبية دجلٌ عصري..
- ماذا؟
- كذبةٌ أرادوا بها تجميل العالم فإذا بها تجردنا حتى من حقنا في أن نكون بشراً - لأن الحزن طاقة، ولأن الكلمات برمجة، ولأن الغضب يرتد على صاحبه! البرمجة العصبية مقززة فعلاً، تخلعنا من إنسانيتنا، من حقنا بأن نكون ضعفاء وضحايا وحزانى و..
- ما شاء الله، أنتِ مطّلعة!

- وشاهدة على جريمة العصر: لقد حرمونا من حقنا بأن نشعر بما نشعر به، إنني حزينة ومليئة بالقرف من نفسي، إنني بصراحة شديدة أكرهُ كل شيءٍ في: أكره وجهي، أكره حياتي، أكره نقصي، إن مجرد تذكري مزعج بالنسبة لي، هذا ليس موقفاً أختاره، بل هو إحساسي ذاته، ولكنني مع ذلك محرومة من أن أحس بما أحس به! من أن أحس بأي شيءٍ بخلاف الحب والتسامح والأمل! إنني أرفض هذه الهرطقة، أرفضها! أرفض كل ما من شأنه أن يصادر مني إنسانيتي، وعندما أقول إنسانيتي، فأنا أعني الحزمة كاملة: الغضب والضعف والألم واليأس.. كل هذه الأشياء هي من حقي!

كنت أزفر. أتنفس بصعوبة. أردفتُ:

- لقد فقدتُ طفلاً يا معاذ، فقدتُ طفلاً عمره خمس سنوات، مات أمام عيني، وكان يناديني "ماما" ولكنني كنتُ مليئة بالغضب والقرف من حياتي إلى درجة أنني لم أنتبه بأنه سيموت، وها قد مات.. وأنا أتساءل ماذا منحته في حياته، وأي جدوى تحققت من كوني أمه، إنني أتساءلُ عن ذلك طوال الوقت، أتساءل كيف مات ولدي هكذا؟ كيف يمكن أن تموت الطفولة وماذا يبقى لنا في عالمٍ تموتُ فيه الطفولة كل يوم بفعل أخطائنا؟ إن الأمر ببساطةٍ شديدة لا يغتفر، وهو يتملكني تماماً، ولا أستطيع التفكير بسواه: لا أستطيع إلا أن أحسّ بالألم والقرف والغضب، وأعتقد بأنه الموقف الأكثر إنسانية حقاً.. يا معاذ، هذا الغضب، هذا الألم، إنه الشيء الوحيد الذي أسمح به لنفسي بعد وفاة عزيز، أن

أرفضني لفرط ما أنا ملوثة، والآن.. الآن أنت تقول بأن هذا الحزن، هذا الألم، هذا الرفض.. ليس من حقي؟ لأنه الدولاب الذي يدفع بعجلة الموتِ نحوي، لأنني على حد تعبيرك أبرمج جسدي على الموت؟

- مهلكِ.. عواشة، مهلكِ..

كنتُ أتنفس بصعوبة، ذكرى عزيز تخنق أنفاسي.

- أنتِ تريدين أن ترفضي حياتكِ لأنك تعتقدين بأنك لو فعلتِ ذلك، وأنتِ بنظرك شائهة وملوثة وآثمة، فأنتِ تقتربين قليلاً من التكفير عن وجودك؟ ولكن وجودك ليس خطيئة يا عائشة، وجودك ليس خطيئة لأنه ليس ملكك، لأنه ملكٌ للخالق.

- أنا أريدُ التكفير عن كل شيء: حياتي وإنسانيتي وأمومتي وأنوثتي، أريد التكفير عن كل شيءٍ يلعنه هذا العالم.. ولكنني لم أفعل ذلك! أنا لم أنتحرْ، أنا أرغبُ بالموت ولكنني لم أنتحر، أنا..

- أنتِ تومئين والموتُ يستجيبُ يا عائشة، لأن الله خلق العالم لتلبية رغباتنا.. أياً كانت، أياً كانت! تخيلي غرابة الأمر، ثلاث ميتاتٍ وشيكة في نفس التاريخ، في كل ذكرى لوفاته يبلغ بك الحزن حداً فائضاً إلى درجة استدعاء الموت؟ لا يمكن أن يكون الأمر صدفة. أنتِ تظنين بأنه من حقك - في إحساسك الداخلي الذي لا يخص أحداً غيرك - أن ترفضي حياتك وأن تكرهي وجودكِ، ومع ذلك تظنين بأن إحساسك هذا ليس كافياً لكي تموتي؟ أنتِ لم تقطعي شرياناً.. ولكنك قطعتِ أملاً، وأنا لا أرى فرقاً بين الاثنين.

لم أعد قادرة على الكلام، امتلأتُ دموعاً، أحس بالدموع تجري في حلقي وأنفي أيضاً..

أردف بالقول:

- ما أحاول قوله، بصفتي "مطوع" طبعاً.. ولأنني مؤمنٌ بأن الانتحار حرام، بأن ما تفعلينه بنفسك هو عين الحرامِ يا عائشة، لا فرق عندي بين أن تبتلعي آلاف الأقراص وبين أن ترغبي بالموتِ بكليتيك وعلى هذا النحو المخيف.
- ولكنني لم أنتحر! أنا أعرفُ بأن الانتحار حرام ولم أنتحر.
- ولكنك أردتِ ذلك، أردته يا عائشة.

أنا أردته، أنا أريده، أريد أن أرى ولدي، أريد أن أضمّه وأشمّه، أنا أريد عزيز! أريد ولدي! تعال إلي يا يمه وأخبرني بأنك تحبني، الله يخليك سامحني، الله يخليك سامح أمك..

هل كان هذا ما قلته؟ وهل كانت تلك فعلاً صفعات أوجهها إلى خديّ؟ هل كنتُ أضرب نفسي؟ تعال يا عزيز سوف أضرب أمك ضرباً مبرحاً، قاسياً، سوف أعلقها من قدميها وأضربها وأضربها وأضربها حتى تلفظ قلبها المخروم من فمها، سوف أجلدها بالسوط وأقطعها بالساطور وأطعمها لأسماك القرش، تعال يا ولدي قبل أن أقتلني فعلاً.. تعال يا حبيبي، تعال يا عزيز، لم أقصد والله، لم أقصد أن أخيفك، إذا كنت تحب أمك فلن أضربها، لن أؤذيها.. إذا كنت تسامح أمك سأسامحها أنا أيضاً وأقبّلها بين عينيها وأقول لها هنيئا لك يا عائشة، تعال يا عزيز فأمك لم تقصد أن لا تلتفت في ذلك اليوم، لم تقصد أن تتمنى موتك! لم تقصد أن تكفر بأمومتها،

لم تقصد أن تسمح لموتك بأن يحدث بهذا الشكل.. تعال يا ولدي رحمةً بي!

كان صياحاً فضائحياً، وهستيريا أثارت الانتباه، كلما التفت أحدٌ إلينا نهره معاذ "شوف شغلك الله يستر علينا وعليك".. وكانت الجموع تطأطئ خجلة وتمضي بخطى متسارعة، الأكثر فضولاً كانوا يتلكأون في مشيهم، لكي يتسنى لهم أن يشبعوا أكثر من المشهد.. من الدموع والنشقات والصياح الطفولي الذي أثرتُ زوبعته وأنا أردد.. عزيز، عزيز! يا حبيبي.. يا عنكبوتي الصغير، يا جرادتي، يا قطي المسكين، يا عصفوري الذبيح!

- اهدئي يا عائشة..

ما فتئ يجفف دموعي، ودموعي تنهمر بسخاء.

- ابكي ولكن بهدوء.. بهدوء..

ثم اختلج صوته في حشرجة عارضة. رفعتُ وجهي إلى وجهه، ونظرتُ في عينيه، كانت الدموعُ تسيلُ سخيةً وافرة من عينيه وتبلل لحيته، كان كلانا يبكي الفجيعة التي لا يرممها الدمعُ ولا ترقعها الذكرى.

- ولكنه ولدي يا معاذ..
- أعرف.
- لقد مات فعلاً..
- لا حول ولا قوة إلا بالله..

حوقل معاذ وتحشرجَ ثانيةً.. خنقته دموعه.

16 أبريل 2011

الساعة 12: 10 مساءً

- ماذا فعلتَ بها يا ولد؟

سألتهُ مريم موبّخةً، وهي تراني وقد ألقيتُ بنفسي عليه، مثل خرقةٍ ممزقة ومبتلةٍ بالدموعِ، رأسي على كتفيه ودموعي تسحّ بسخاء. كنت أحس بجسدي يتفكك، أجرجر خلفي أعضاءً ميتة. لم أعد أستطيع المشي. سرنا لدقيقتين ثم قلتُ له لا أستطيع، جلسنا.. تباطأتنا أمي، مضت ساعة أو أكثر على انتظارهم لنا في المطعم المقابل، ولكنني علقتُ في المكان، صرتُ جزءاً من مفرداته. صرتُ جثة العصفور، أو الجريد اليابس، أو العشبِ المصفرّ.. هذا الجرح هو كل ما أنا عليه، هذا الجرحُ هو هويتي، وهاويتي. إذا لم يكن من حقي بعدُ أن أكون أنا، أن أكون هذا الجرح فمن أنا؟

- ماذا فعلتَ بها يا معاذ؟! لقد كانت بخيرْ.
- إنها بخيرْ..
- ماذا قلتَ لها؟
- قلتُ لها ما تحتاجُ إلى سماعه..
- آه.. رائع! وهل أنت راضٍ الآن؟

ضمني إليه بقوة ونهرها..

- وماذا تفعلين أنتِ هنا؟
- أمي أرسلتني.

- قولي لها نحنُ بخيرْ.
- اذهب أنت وأخبرها بنفسك.

قالت ذلك، وجلست على يساري، وضمتني إليها، وشعرتُ بي بعيدة، مصلوبةً في لحظةِ الخواء. كل شيءٍ أبيض الآن، كل شيء واللا شيء أيضاً. البحر والعشبُ والظلام والضياءُ والأخت والأخ والأم البعيدة والابن الذي رحل والزوج الذي يوشكُ أن.. لا شيء يهم، إنني ميتةٌ بالقوة لا بالفعل. تحاملتُ على نفسي، على سكرتي وعلى روحي التي جفت لفرطِ البكاء وقلتُ..

- أين السيارة؟ هل هي بعيدة؟

قال معاذ بعناد:

- إنها بعيدة جداً.
- أريد العودة.
- لا عواشة، والله لن ترجعي.. لقد اتفقنا.
- لم أعد أستطيع فعل ذلك.
- والله لن ترجعي! والله العظيم لن ترجعي..

كنتُ في أعماقي أتوسل. قلبه كان يتقطّع.. أرى ذلك في عينيه.

- أريد أن أستلقي قليلاً.
- تستلقين في السيارة، ولكن لن نرجعْ.

تدخلت مريم:

- آخذها أنا إلى السيارة، أعطني المفتاح.. واذهب إلى أمك لأن قلبها مشغولٌ.

* * *

تمددتُ في السيارة، في الكرسي الخلفي. مريم تجلس في المقعد الأمامي، الظهيرة قريبة والشمس حارّة، فتحنا مكيّف الهواء، استأذنت مريم بأن نستمع إلى أخبار الثورات العربية على "البي بي س".. قلتُ لها لا أستطيعْ.

- حاولي أن تنامي قليلاً، حسبي الله عليك من أخ.. جننت البنت!

كانت تتذمر من معاذ طوال الوقت..

- طول عمره.. "نزغة" و"فيه شطانة".. حتى وهو لا يقصد! ينبش وينكش ويفتش! أموت وأعرف.. ماذا قال لكِ؟ قطع قلبكِ مرة ثانية؟ لا أعرف كيف يفكر الرجال.

ابتسمتُ، ما ألطفها حقاً! لطيفة مثل أم.. أليس محزناً أن لا يكون لها أطفال؟

- كيف حال بدر؟
- بو ناصر بخيرْ.

تسميه "بو ناصر" حتى بدون ناصرْ.. ماذا لو لم يأتِ ناصر؟

- ألا يفتقدك؟
- طبعاً يفتقدني، ولكنه ليس في البلد على أي حال، إنه مسافرْ..

وكأنها ليست أختي. لا أعرف شيئاً عنها ولا عن زوجها.. لا أذكر حتى أين تسكن وماذا تعمل. مدرسة؟ أخصائية اجتماعية ربما؟ شيءٌ كهذا.

- لو كان في البلد لما تمكنت من المبيت عندكِ معهم..
- صحيحْ.

- دعينا منه! ليس ثمة ما هو ممتع في الحديث عن الأزواج.. صح؟ ارتاحي أنتِ.

ماذا يعني ذلك؟ هل تحاول أن تداري سعادتها الزوجية واستقرارها مع بدر حتى بدون ذرية؟ هل تخاف مني أم عليّ؟

- كيف تتذكّرين عزيز يا مريم؟
- عزيز؟ الله يرحمه، كان عسل.
- أ حقاً؟
- طبعاً يا عواشة! كان "فلتة" في الذكاء، أكبر من عمره بكثير.. عندما بلغ الخامسة كان يفكر مثل طفل في الثامنة، لا أدري.. يمكن أن يكون الأمر صعباً جداً، أن تحاصري بوعي مبكر لطفلك، تريدين أن تتعاطى معه على أنه طفل، أن تضعي في يده "مصاصة" وتريه يرضى، يسعد.. لم يكن ولدك هكذا، كان منيعاً ضد ألاعيب الكبار، وأنا أعتقد بأن ألاعيب الكبار كلها رخيصة وتنم عن قلة احترام للطفل.. ولدك يا عائشة كان مختلفاً!
- لابد وأنك مدرّسة محبوبة جداً..
- فعلاً!

قالت بزهو. هي دائماً في صف الطفولة، ويمنعها ذلك سعادة استثنائية، وألماً استثنائياً أيضاً.

- ستكونين أماً رائعة ذات يوم.
- عواشة أنا حامل..

قالتها على حياء، وكأنها تخافُ من كلماتها، كمن يعيش حلماً.. يخاف أن يستيقظ منه.

- أ حقاً؟

- نعم.
- مبروك!
- لا تباركي الآن، أنا في شهري الثالث.. والطفل سليم، حتى الآن، أتحقق من ذلك كل ثلاثة أيام، أحياناً أخضع للفحص كل يوم أو يومين، أنا خائفة فعلاً.. وقلقة، ولا أنام، وعاطفية جداً ويمكن أن أتحول إلى قنبلة من الدموع في لحظة، و.. أشم رائحة غريبة في قحفية معاذ!

ضحكنا بخفوت..

- أتمنى أن أنجبه هذه المرة.. أعني، أن أنجبه حياً.
- وأنا أتمنى ذلك.
- نحتاج إلى وجود طفلٍ في العائلة. الطفولة قيمة. إنها تعيد إلينا حقيقتنا.

تأملتُ في كلماتها ملياً. لم يسبق لي التفكير هكذا.. وأخذتني خواطري إلى عزيز.

- كانت تلك المهمة ملقاةٌ على عاتق ولدي، أن يكون طفل العائلة..
- صحيحْ.
- لم يكن طفلاً جداً، كان كبيراً في الحقيقة، جسد طفل، وجه طفل، ولكن روحه طاعنة في القدم. أمي كانت تريد أن تلاعبه، وأن تشتري له دراجة ودبية محشوة وحقيبة "بارني" و.. لا أعتقد بأن تفاعله مع رغبتها كان مرضياً. كان يأخذ ما تعطيه بدون فرح، وكأن عليه أن يفعل ذلك، وكأنه مجبرٌ على الأمر.. على كاهله تقع مهمة إرضاء الكبار، ثمة دور مرسوم له

سلفاً وينبغي عليه أن يملأه أن يكون الطفل النمــوذجي الذي يضحك ويلعب. ولكن لماذا لم يكن ولدي يضحك ويلعب؟

- لم يكن يضحك ولكنه كان يبتسمُ.. لا أدري لماذا يزعجك ذلك، عواشة، قد تكون تلك إحدى أجمل خصاله. لمــاذا تصرّين بأن يجيء طفلك بشكلٍ مقرر سلفاً؟
- أعتقد بأن إعلانات البامبرز هي السبب.

ضحكت.. لم أضحك أنا.

- يا لكِ من طفلة!

هل أنا كذلك حقاً؟

- هل كان يلعب؟
- كان يلعبُ كثيراً، كان يلعبُ طوال الوقت، ألا تذكرين؟ ولكنه يلعبُ بشكلٍ مختلف؟ يأخذ سيارة ويفككها إلــى مليون قطعة ثم يرمي بها، إن له طريقة فريــدة فــي التفكير، يريد أن يفكك كل شيء، لديه هوس بتحليــل الأمور إلى أجزاء، عقل منطقي تحليلي بامتياز.. حتى الألعاب الجديدة تتحول بين يديه إلى خردة!
- هذا ليس لعباً.
- بل هو لعبٌ يا عائشة، ليس ثمة شخص لا يلعب، حتى الكبار يلعبون. أنتِ تلعبين بالكلمات، الكتابة لعبتك.. أنا لعبتي الآيس كريم، وأمي الكروشيه. عزيز يحب تحليل كل شيء، لقد كنتُ أراقبه عن كثب وأعجب به. لو أنه ما زال حياً لربما صار في المستقبلٍ عالم فيزياء. أليس رائعاً أنك قادرة على إنجاب طفلٍ بعقلٍ متطور؟ لمــاذا يفزعك الأمر؟

هل هذا هو ولدي؟ طفلٌ بعقلٍ متطور؟ وأنا التي أصـرّت بأنه "غير طبيعـي" وأخذتـه إلـى كثيـر مـن الفحوصـات والاستشاراتِ والاختبارات؟ هل كان ذلك قصر نظر أصبتُ به؟ لم أكن أعرف بأنني أم لولدٍ ذكي جداً؟ وربما عبقـري؟ كنـتُ أعاقبه على مواهبه؟ كنت أقتله؟

- لم تكن أمومته سهلة.
- أتخيّل ذلك.. ليس سهلاً أن تكوني أماً لطفل مبكـر النضج. تريدين أن تكوني الكبيرة في العلاقـة، أن تتحكمي بالأمور إلى حدٍ ما وأن تمارسي نوعاً مـن الوصاية. من الصعب أن تقولي للطفل حـان وقـت النوم ثم يسألك لماذا يجب أن أنام، ولماذا لا تنامين أنتِ أيضا إذا كان الأمر ضـروريا للصـحة كمـا تدّعين! إن الكبار مليئون بالادعاء، ويجتهد الأطفال هذه الأيام لتبين الغث من السمين الذي نقدمـه لهـم بحجة أننا أكثر فهماً ودراية، إننا نعطيهم في الغالب معرفة مشوهة ومزيفـة: إذا جلسـت قريبـا مـن التلفزيون سوف تصبح أعمى، إذا واصلت إصـدار تلك النخرات سوف يتحول أنفك إلى أنف خنزيـر! تخيلي يا عائشة، من بين كل تلك الأكاذيب نريد منهم أن يصدقونا عندما نخبرهم بأن أكل السـبانخ جيـد لصحتهم.. "بوباي" يفعل ذلك أفضل منا! إننا نملؤهم بالزيف ومع ذلك نريد منهم ثقة غيـر مشـروطة، وتصديقاً تاماً لكل ترهاتنا! بمعنى آخر: مـا نريـده نحن الكبار، مهووسي السيطرة، هو أن ننشئ جـيلاً من العبيد، لا يسائل ولا يتساءل..

أحس بكلماتِ مريم تنغرسُ في رأسي مثل سكاكين، تورقُ ألماً وتضيء. إنها أكثر وعياً مما ظننت، أنا بكل هذا الرصـــيد الطويل من القراءة، لا أملك نظرتها الثاقبة إلى الأمور. إنها تكنّ للطفولة تقديساً عظيماً، وتعامل الأطفال كأنداد.

- ستكونين أماً رائعة مريومة!
- أتمنى ذلك.

التمعت عيناها.. وتنفست الصعداء.

17 أبريل 2011

الساعة 12:01 صباحاً

أختي حامل. حُبلى. الحبلُ: الرّباط، ويعني في لسانِ العرب: العهد والذمة والأمان، وحبلُ المرأة: امتلاءُ رحمها.

أنتِ حُبلى.. يا أخيّة! حياةٌ تتخلق في أحشائك. أنتِ الوسيلة الإلهية، المفوضة لتجديد الحياة. أنتِ العالم وهو يخلعُ عنه جلده القديم، غبارهُ وأضغاث أحلامه، ويبعثُ من جديد. ما يحدثُ لكِ الآن يا أخية، ما يحدث فيكِ وبكِ ومن أجلكِ هو معجزة الخلق الأولى، تعيد سرد ذاتها في اللحم والعظم.

تعيدين لحظة البدايات المقدسة، تسترجعين الخلق الأول، لحظة الخروج من القوة إلى الفعل، من الهيولى إلى الصورة، من الغبش العدمي إلى الوجود. لحظة كانت السماواتُ والأرض رتقاً، لحظة كان الكون كله مثل حبة الحمص السابحة في العدم، المكتفية بذاتها، المتأملة لذاتها، الغافية في أحلامها الخاصة. تلك نطفة الوجود غير المخلقة، خلية حية سابحة في اللا مكان، واللا زمن، انفجرت - راغبة - إلى ملايين المجرات والنجوم والكواكب والأقمار والكائنات..

أنتِ حامل.

حاملٌ لأيّ شيء؟

- للحياة.

الحياة تتخلّق في أحشائك، تخرج خضراءْ. الحياةُ تكمنُ في تلك النطفة الأصغر من حبة الحمّص. كونٌ بأسره.. بسماواته وأراضيه، وبحاره وغاباته وجباله وأنهاره، بخيله ورجله وضوئه وأقماره. أنتِ حُبلى..

حبلى بأيّ شيء؟

أنتِ الحبل الممدود إلى سرّة العالمِ

إلى الحقيقة في باطنها السحيق

إلى بطنِ الحوت

إلى بئر المخفيّ والمحجوبْ.

أنتِ الأنوثة تمارس حقيقتها الخاصة

بسيطة وعارية

أنتِ حُبلى..

أيتها القيّمة على خفايا الخلق

يا وريثة السر

أنتِ حاملة المفتاح، وأنتِ الباب، وأنتِ ناصية كل قصيدة وضوء كل معرفة.

أنوثتك لعنتك/لعنتك بركتكِ

وجودكِ فناؤكِ

كل ما فيك يضيء

حتى العتمة.

17 أبريل 2011

الساعة 12:40 صباحاً

اخترنا طاولة في آخرِ بقعة في المطعم، وكأننا أردنا الاختباء. هناك جلسنا نأكلُ. عين معاذ عليّ، عينٌ مريم على معاذ، عين إسراء على مريم، وأمي ترانا جميعاً دون أن ترفع عينيها، تحس بكل تحركاتنا، وكأننا ما زلنا صغاراً قابلين للتنبؤ، وكأننا لم نكبر أبداً. مطعم إيطالي، هادئ جداً.. وأنا أقطع جبنة الموزاريلا بالسكين، وأغرس الشوكة في بطنها، وأغمسها في صلصة البستو بالريحان مع الخل الأحمر، وأتركها تهدرُ في داخلي، مثل حلم، مثل مزيجٍ سحري.. كان صعباً علي أن لا أفكر بأنني سأموت قبل أن أزور إيطاليا. الآن وقد جاء معاذ بتحليلٍ استثنائي في بساطته، ومرعب في واقعيته، هل يمكنني أن أموت بدون إحساسٍ بالخسارة؟ هل أستطيع أن أموت بكبرياء؟ بكرامة؟ هل أستطيع أن أركل كرة الأرض في بطنِ العدم وأمضي خفيفة إلى السماء؟ هل يمكن ذلك أم أن الأمر برمته محض.. محض.. لا أدري! عبثٌ ربما؟

أحسّ في داخلي بأنني كنتُ أنذر نفسي للموتِ قرباناً للعفو. آمنتُ بأنّ رحيلي هو قصاصي، بأن موتي هو الجواب الوحيد الممكن لحياةٍ هزيلة وغير جديرة. كنتُ أظن بأن موتي كفارتي، بأنه سيكون اعتذاراً لك يا عزيز. وماذا سيكون الأمر الآن وقد انكشف كل شيء؟ بأنني أقتلني؟ بأنني قتلتك؟ ولعلني الآن

أقتلهم؟ متى سأكفّ عن إيذاء العالم؟ ولأول مرة لا أنظر إليّ كضحية للعالم، بقدر ما أرى العالم ضحيّتي!

إنني أتألم في كل مكان من قلبي ولكنني مع ذلك خفيفة وباهتة، أكاد أتلاشى.

ليس ثمة ما يمكن قوله، لا شيء باستثناء التفكير في إيطاليا، مع أكل جبنة الموزاريلا الطازجة. لم يكن هناك ما يستحق القول، لا شيء باستثناء تلك الحقائق الباردةِ، الجافة، قارسة الوجوه التي تحدق فيّ بلا رحمة، كانت حقائقي دميمة، أنا انتحرتُ تلميحاً، وأنا أيضاً قتلت ولدي، ليس فقط لأنني لم أكترث بما يكفي يوم علق في بطنِ الشارع وتساقطت اللعب من يديه وهو يناديني "ماما تعالي" وأنا أنهره "تعال الآن – خلّصني!".. ليس لأنني لم أتزحزح من مكاني، لم أنتشله ولم أنقذه. بل لأنني أيضاً رغبتُ في لحظة من اللحظات، لو أنني لم أكن أمّاً، لو أنني لم أنجبه.

لم يكن عدنان مخطئاً إذن، لقد أخطأ في التحليل، لا في النتيجة. أنا لم أقذف بنفسي أمام السيارة، ولكنني جعلت السيارة ترتطِم بي. الاختلاف طفيف، والموت واحد. لقد فهمتُ الآن، فهمت..

أن تعرف نفسك على هذه الدرجة، أن تتعرف على خياراتك في الحياة، وأن تقبل بالنتائج، أن تمضي مرفوع الرأس رغم دودة الذنب التي تنخرُ روحك، أن تعرفَ كل هذا يعني أن يصير الضعف ترفاً، وأن لا يعود بإمكانك أن تكون إلا ضحية نفسك، أن تعرف، نعم.. أن تعرف بأن كل ما عليك فعله، بعد المعرفة، هو أن تصفح. تي أس إليوت يتساءل: أي صفحٍ بعد كل هذه المعرفة؟ وأنا أتساءل: ولكن هل يمكن الصفح بلا

معرفة؟ لقد عرفت، لقد انكشفت الحجب تقريباً.. فهل سأصـــفح؟ هل أستطيع؟ هل أريد؟

خرمٌ يكبر في روحي. إنني أفهمُ الآن، أسمعُ وأرى. عندما نفجعُ بالفقد تثقبُ أرواحنا. هذا ما يحدث بالضبط، شيءٌ يشـــبه الندبة غير المرئية، عالقة في أعمق بؤرة في الروح، تتســـرطنُ وتتفشى، تنتشرُ وتملأ وجودنا، تعبئ أفكارنا، تبث أغنيات حزينة في الفضاء، تتآلف مع أغنياتٍ أخرى، وأخرى.. أقـــدارنا هـــي محصلة تلك الأغاني التي أطلقناها في الفضاء.

كم كانت أغنيتي مؤلمة!

16 أبريل 2011

الساعة 55: 1 صباحاً

أمضينا بقية اليوم بسهولةٍ، وكان الزمن يتسرب كشأنه عندما تصير الحياة أخف. نادتني مريم: عواشة جربي المراجيح.. ففعلتُ، اخترتُ أرجوحةً ودفعتني إلى الفضاء، أمد ساقيّ إلى أعلى لأرتفع أكثر، لأصير عصفوراً، وأنا أرى الكويت زرقاء مضيئة، الكويتُ وطن المراجيحِ والريح، ونسمات نيسان، وأزل البحر.. مرآة السماء على الأرض، أرى النوارس، الأطفال، زهر النوار. كان المكان سخياً بالحياة، وكانت الألوانُ التي أراها، تغلف كل حيّ، هناك استرجعتُ طفولتي، وسمحت لنفسي بأن ألعب.

بعد الغداء جلسنا على الشاطئ، نستذكر أشياءً قديمة، حفاةً، دفّنا أقدامنا في الرمل الدفيء.. واسترجعنا أياماً خلت. كان الأمر يشبه تصفح ألبوم صور عائلي، بالأبيض والأسود، باستثناء أنه لا صور ولا ألبوم، مجرد ذاكرة خائنة ومراوغة، لم أكن لأتذكر معظم القصص التي حكوها.. تذكرين يا عائشة؟ حظيرة الأرانب في حديقة بيتنا القديم؟ تذكرين القطة الرمادية التي تبنيناها، ثم امتلأ ساعداك بالبثور وأجبرتنا أمي على التخلص منها؟ حقدنا عليكِ يا عائشة، على بثورك وحساسيتك وساعديكِ، دائما تفسدين متعتنا.. تذكرين سدرة بيت بو عبدالله؟ ضعتِ منا في أحد الأيام وعثرنا عليكِ فوق، في السدرة،

وتوسلنا إليك لساعاتٍ لكي تنزلي ولكنك لم تنزلي.. كان ذلك بعد وفاة أبي بأسبوعين، ماذا كنتِ تفعلين في السدرة؟

أذكرُ السدرة التي تشبه أبي. كنتُ أختبئ بين أغصانها. كنتُ أبحث عن أبي بعد وفاته. كان يحب النبق وكان وارفاً وعظيماً مثلها. أذكر سدرة طفولتي البهية الطالعة من صدرِ المكان!

آه.. تذكرين ذلك اليوم بعد أن توسلنا إليك لساعاتٍ أن تنزلي، وعندما أوشكت الشمس على المغيب وافقتِ على النزول ولكنك لم تعرفي بأن النزول أصعب من الصعود.. بدأتِ تبكين وتنادين "يبه" وكلنا بكينا ونحن نطالعك من تحت. أمي الأرملة الحديثة لم تكن تستطيع الخروج من البيت، كانت تراقبك من النافذة وقلبها يتقطع.. واتصل خالي على "المطافي".. أنزلوك بعد عناء، وبعد أن نزلتِ ضربك معاذ.

- لم يضربني.. بل ركلني.

ضحكتُ وضحكوا.. معاذ "غاوي رفسات" تقولُ مريم، وهي تعيد سرد تلك الأيام: تذكرين رحلتنا البحرية إلى "فيلكا".. كنا نظن بأننا سنصل إلى جزيرة هي أشبه بتلك التي وصلتها أسرة روبنسون كروزو، وأنتِ كنتِ تريدين أن تشيّدي بيتاً فوق شجرة. طبعاً كان العثور على الرمال والمزيد من الشواطئ خيبة أمل كبيرة لنا، وأبي كان يضحك، وأمي أيضاً.

تذكرين كم مرة أخذك أبي إلى سوق الحمام لكي تتفرجي على الدجاجات والكتاكيت المصبوغة، وفي كل مرة تعودين وبيدك كتكوت وردي، دائماً وردي؟ تقولين بأنه ملائمٌ جداً لغرفتك، لأن سجادة غرفتك وردية وستائرك وردية ولديك "بيت باربي" بلاستيكي وردي أيضاً..

هل تدركين بأننا استخدمناك كورقة مفاوضات كلما رغبنا بشيء ورفض أبي؟ بابا نريد الذهاب إلى البقالة، يقول لا.. البنت لا تخرج إلى الشارع، نقول له عواشة تريد مصاصة، يقول طيب اذهبي مع عواشة ولتصحبكم المربية.

كان - رحمه الله - يحب الشاطئ مثلكِ، ويحب القوارب، ويحب رحلات (الحداق).. وأنتِ كان قلبك يوجعك على الديدان التي يستخدمها كطعم، كنتِ تبكين عليها أحياناً، كنتِ تفسدين رحلاتنا دائماً، ولكن أبي لم ينزعج! كنتِ الصغيرة المدللة، تذكرين! تذكرين كيف كان ينتقي الزيتون الأسود لكِ من طبق السلطة ويضعه في صحنكِ.. لأنه يعرف كم تحبينه؟

تذكرين عمي عبد الرحمن ورحلاتنا الصيفية إلى برمانا في لبنان؟ كنتِ تتذمرين: كل صيف نذهب إلى لبنان! تتوسلين لأبي لكي يأخذك إلى هاواي.. ماذا عساكِ تفعلين هناك؟ تسبحين مع الدرافيل بالمايوه الإسلامي؟

تبدو طفولتي بعيدة ونائية، كأنها طفولة شخص آخر. كانت الأصداء التي تأتيني، عني، متضاربة مع الأصواتِ في داخلي.. من أنتِ يا عائشة؟ كنت أتساءل، فيم هم يسترسلونَ في إلقاء النكات ونبش الذاكرة، من أنتِ يا عائشة؟ هل يمكن أن يتغير الإنسان إلى درجة ينسى فيها من كان من قبل؟ هذه الصورة التي فرت، صورة عائشة القديمة في ألبوم وذاكرة العائلة، تبدو جميلة فعلاً.. لماذا تخليت عنها؟

17 أبريل 2011
الساعة 3 صباحاً

ارتجفت أضلعي، عندما وقفنا بالسيارة أمام البيت. ساعة السيارة تشير إلى الثانية فجرا، وسبع دقائق.. أمي ترتجفُ، مريم وإسراء متيبستان، معاذ متصلّب اليدين، مثل صنم يقبض على مقودِ السيارة.. التفت نحوي.

- كما وعدتكِ.
- نعم.

قلتُ، وأنا أرمق باب البيت، وجلة.. أرى جغرافيا عزلتي تستعيدني.

- يمكنك أن تذهبي، ويمكنك أن تأتي معنا، ويمكنك أيضا أن تطلبي منا البقاء إن أردتِ..

كان قلبي ينغلق على نفسه، أحسستُ به ينطوي تحت جناح أسودٍ، مثل جناح غراب، مثل.. كف الموت. كنتُ عائدة إلى الموت بعد أن تذوقت الحياة يوماً، وامتلأت بوجود الآخرين، وشرّعت قلبي على العالم.

كل شيء انتهى الآن، ويجب عليّ أن أعود.

- وإللي يسلمك تعالي معانا يا يمه..

توسلت أمي، كان ذقنها يرتجف.

- يمه..

تحشرج صوتي. كان من الضروري أن لا أبكي أمامها،

ليس بعد أن مكنتها من قليل من الفرحِ بي، بعد أن رأتني أعود طفلة. جزء مني كان يريد البقاء معهم، ولكن ذلك الصوت.. الصوت الصغير، الهامس بيقين، المنبثق من أعماقي، يقول بأن الوقت لم يحن، وبأن عليّ أن أعود، أن أكتب، بأن عندي التزاماتٌ يجب احترامها. كان علي أن أنهي الأمر، أن أواجهه.. كان علي أن أنزل وأتمم ما بدأت.

تدخل معاذ:

- على الأقل عدينا بأن تتصلي.
- وعد، سأتصل.

قلت بصوتٍ واثق. هذه المرة أنا فعلا أرغب في سماع أصواتهم..

أضافت أمي بصوتٍ مخنوق:

- وعدنان؟
- ما به عدنان؟
- لقد تعب من المبيت في الفندق.

كدتُ أنساه هو الآخر، أنسى وجوده وخيباته وألمه، ابتسمتُ رغماً عني.. أردفت أمي:

- سأرتاح أكثر لو عاد.. لو حدث لكِ شيء، لا قدر الله، ينبغي أن يكون أحدٌ معكِ..
- لا بأس..

لم أكن أمانع، لم يعد يزعجني عدنان.

أردف معاذ:

- سأتصل به غداً صباحاً وأطلب منه أن يرجع.
- جيد..

وسادت لحظة صمت. كان معاذ ينفذ بعينيه إلى داخلي، يحاول أن يسبر أغوار أفكاري، ولكنني كنتُ واضحة، سطحية تقريباً، كانت الأمور تبدو شفافة وبسيطة، والعالم لم يعد معقداً على الإطلاق.

ابتسم نصف ابتسامة..

- هل استمتعتِ؟
- نعم.

قلتُ، وأنا أبتسم متواطئة، استمتعتُ رغم الذبحة التي انتابتني. علي أن أشكرهم الآن: على مجيئهم، على رحيلهم.. لقد آن أوان عودتي.

17 أبريل 2011

الساعة: 8:10 صباحاً

"سوف ترقد ولن تستيقظ ثانيةً

وعندما تفارقُ الحياة تتخلى عن ألمك العنيف

وأسوأ ما يمكن أن يحل بك، إذا أصاب التقدير

هو سبات عميق وليل طويل طيب"

لوكريشيوس.

أقرأُ قصيدة لوكريشيوس وأنا أفكّر بالفكرة إياها: أنا وحدي الآن.

وأعود أدمدم: لن تستيقظ ثانية.

وأفكر: وحدي.

وأرتّل: سباتٌ عميق وليلٌ طويل..

وأكرر: وحدي.

وبين القبضة المائية للشعرِ، والقبضة الفولاذية للوحدةِ، شعرتُ بروحي ترفّ خفيفة، شفيفة، وشعرتُ بما يشبه شعور الموتى، وداهمني نعاسٌ غير مبرر، في العزلة التي لا يكثفها ولا يضاهيها ولا يخترقها إلا الشعر.. وغفوتُ وأنا أفكر بأشياء بعيدة ونائية: أفكّر بالعشبِ والمطر، وديدان الأرض والخيول والإسطبلاتِ وزهر النوارِ، أفكر بالأشياء كلها وأغفو، أغفو

وأطفو، لكي أتمم عزلتي.. تكادُ الرحلة أن تنتهي، ولكـــن ثمــة أشياء ينبغي أن أكتبها الآن، قبل أن أضع القلم في نـهاية يـــومي هذا، وأستقبل يوم غد بصدرٍ مشرّع على جميع الاحتمالات..

17 أبريل 2011

الساعة: 10:10 صباحاً

معرفة الموت هي معرفةُ الحياة،

والعكس صحيحْ.

يقول ابن مسكويه "**الموت ليس برديء، وإنما الرديء هو الخوف منه** "[32]، وبنفس المعنى يقول أبيقور: "**خوف الموت هو من فعل المخيّلة**"، ويقول نيكوس كازنتزاكيس: "**أنت لا تستطيع أن تقهر الموت، ولكنك تستطيع أن تقهر خوفك منه**"، ويخطو الفيلسوف الروماني سينكا خطوة أخرى، أكثر تقدماً وجرأة، ويقول: "**إن من لا يملك إرادة الموت، لا يملك إرادة الحياة**".. وإذا كان هيغل يقول بأن "**القمة التي ينبغي تجاوزها هي الموت**" فهذا ما سوف أفعله.

أنا الآن في مجابهةٍ صريحةٍ مع الموت، والحياة أيضاً، لأن الاثنين كيانٌ واحد بظهورين اثنين، وأنا قرّرتُ أن أتجاوز مثنوية الوجود، وأن أعبر فوق الأقطاب المتضادة، وأساوي بين الشيء ونقيضه، لأن هذا هو الشيء الوحيد الذي يبدو منطقياً الآن، الشيء الوحيد الذي يمكننا من التعاطي مع العالم خارج المنظور الفصامي الذي يزيدنا تشظياً.. هذا ما سأفعله، سوف أخطو.. سوف أعبر، إلى الفضاء المحايد الذي تطفو فيه الأضداد وتتلاشى فيه الفواصل، حيث "**الوجود موتٌ متلاشٍ، والموتُ وجودٌ يزول**"[33]

سوف أقفز في عقلي إلى هناك، لأنه إذا كان الموت هو وجه الحياة الآخر، وإذا كانت الحياة ذاتها هي الموت في حلةٍ أخرى، فليس ثمة ما يخيف، سأنزل إلى العالم السفلي قريباً، إلى موتي الخاص، موتي أنا، وربما سيكون ذلك الموتُ هو ذاته حياتي، التي لم يعد بإمكاني أن أكابر وأدّعي بأنني لا أريدها.

أريد أن أغفر لي. جرحي فمٌ مشرّع على صرخته. أعرفُ ذلك ولكن عليّ أن أغفر. إنها الطريقة الوحيدة للبقاء، أو لموتٍ جدير. لا أريدُ الرحيل لأنني مبرمجة على الموت. ليس بوسعي بعد اليوم أن أكون ضحيّتي.

قد لا أنجو من ميتةٍ تفصل بيني وبينها ساعاتٍ قليلة.. يتطلب الأمر جهداً ذهنياً جباراً لمحو كل تلك الندوب التي عكفت عن تربيتها في السنوات الثلاث المنصرمة، يتطلب الأمر - على الأرجح - أكثر من ساعة اعتراف لمحو كل فكرةٍ عدمية تبنّيتها. الأرجح أنني سأموت فعلاً، ولكن علي - إذا ما قدر لي الموت - أن أموت بشكل محترم! أن أموت وقد فعلتُ ما عليّ فعله.

ما الذي عليكِ فعله يا عائشة؟

ينبغي أن تتوقف عجلة الذنب هذه. إنها تأكل كل شيء، تحرق كل شيء، تدمر كل شيء. ينبغي أن أعرقل هذا المتراسُ العظيم بذراعي حتى لو أدّى ذلك إلى بترها.. ماذا لو مررتُ كل هذا الألم إلى أمّي؟ أين سيتوقف هذا العذاب؟ لا بد من إيقافه، الماضي لا يعود.. فكيف المضيّ؟

لأن الذات المجلودة ليست الوحيدة التي تتألم.

لأن اللا مغفرة لم تنفع.

يجب أن أغفر،

ولكن كيف أغفر؟

17 أبريل 2011

الساعة 12:04 مساءً

رأيتُ بالأمسِ حلمًا عجيبًا.

كنتُ أجلس على الشاطئ، معي معاذ ومريم، وعدنان يجلس بعيداً عنا بخطواتٍ ويولينا ظهره، وأمي تتقدمنا ببضعة أمتار، أقرب إلى البحر، فاردة ساقيها إلى الماء والأسماك الفضية الصغيرة تلعبُ بين ساقيها المكشوفتين. هل ترين يا عائشة؟ البحر اليوم ملوّنٌ وليس أزرق! نوّه معاذ، وكان على حق. كان البحر يعكس كل الألوان، الأرجواني، الأصفر الذهبي، الوردي، الأخضر أيضاً، ولم يكن له لون أزرق إلا في أطرافه..

وفكّرتُ: لأنه مصنوعٌ من الضوء.

وكنت أتساءل، إذا كان البحر مصنوعا من ضوء، فممّ صنعت الشمس؟ رأيت الأشياء من حولي ملونة بإفراط.. هل توجد في العالم كل هذه الألوان؟ ولماذا تبدو الأشياء شفافة ومشرقة، مثل الكريستال الملوّن، حتى الشجر، حتى الرمل، حتى النخيل، وحتى وجودهم ذاته. رأيتُ هالاتٍ ملونة تغلف حضورهم، معاذ أزرق وذهبي، مريم خضراء من غير سوء. نظرتُ إلى أمي، كانت تشع بألقٍ بنفسجيّ غريب. بحثتُ عن عدنان، هالتهُ باهتة وهو حزين، أردتُ أن ألمس كتفه، ولكنني لما هممت أن أنهض وجدتُها تجلسُ أمامي، كما لو كانت تجلس

بيننا دائما، وكان معاذ ومريم ينظران إليها كما لو كانت.. شقيقة لنا، إنها جميلة! إسراء؟ سألتها، قالت لا، إنانا؟ سألتها.. فأومأت. ضحكتُ بدهشة، قلتُ لها لم أكن أدري بأنــك تعــرفين أخــي وأختي. ابتسمت صامتة، وضحكتُ مرّة ثانية وأنا غير مصدقة سألتها: متى عدتِ من العالم السّفلي؟ قالت: لقد انتهى الأمر. إنها تشع بضوء أبيض، الأبيض منشأ الألوان. سألتني: هل فهمــتِ الآن يا عائشة؟

17 أبريل 2011

الساعة 2:07 مساءً

بتّ أشردُ كثيراً.

أفكاري تطير في المكان.

بين كتابة الصفحة السابقة وكتابة هذه توجد ساعة فارغة.

ماذا فعلتُ في تلك الساعة؟

لا شيء، كنتُ أفكّر وحسب.

أفكر بأي شيء؟

حتى أنا لا أدري.

كل شيءٍ عصيٌّ وخارجٌ عن تحكمي، أحس بأن أحلامي خرجت من إطارها الليليّ وصارت تزاحمني هذه الظهيرة. هل يمكن أن تكتسي الأحلام باللحم؟ أن تتجسد القصائد؟ أضحيتُ أرى شعراً. يقول وعيي: كيف ترين الشعر والشعر جوهر؟ ويقول الصوتُ في داخلي: في ألفِ ظهور.

أرى الشعر بعينيّ هاتين، أرى الصور الشعرية حقيقةً، أرى الأجنحة المتكسرة المضمخة بالدم، وأرى نطفة الضوءِ في أقدم لحظةٍ للوجود، وأرى كهوف الأوائل وخفة الموتى وأرى.. أرى المجاز.

ما معنى هذه الرؤى؟

أن ترى الحلم. أن ترى الشعر.

أن ترى مجاز العالمِ، وواقعه أيضاً.

كل شيءٍ مرئي، واضح وملتبس، حلميّ وواقعيٌّ.
كل شيءٍ يفضي إلى بعدين اثنين.
قطبين نقيضين يتعانقان في غفلة وعينا - كما الموتُ والحياة.

17 أبريل 2011

الساعة 3:57 مساءً

عندما أحس بالألم، أو بالحزن. عندما أحس بالفرح، أو بالشوق، أو بالحب، أو بالكره.. عندما أحس بشيءٍ ما فأنا أطلق في الخلاء أغنيةً. هذه الأغنية لها أجنحة، إنها ترفرفَ عالياً. قد أطلق قراراً يبحثُ عن جواب، أو جواباً يفتشُ عن قرار. المقام يحتاج أن يكتمل، أن يتناغم. إنه يبحث عن الآخر المتمم لوجوده، الذي يمنحه الثقل والكثافة، ويؤكد هويته.

ماذا يحدث لو أنني أطلقت أغنيةً، وأطلق آخر أغنية مثلها.. تمتزجُ الأغنيتانِ، تتواشجان، تتلاقحان، تغتذيان من بعضهما البعض. الإيقاعُ صمتٌ وصوت. الأغنية تصبحُ أثقل، تصبحُ أشد.

ماذا يحدث لو غنى الناس كلهم نفس الأغنية؟ ستكون تلك أغنية العالم. هناك دائماً أغنية كونية: مؤونة ألم، مؤونة فرح، مؤونة سلام، مؤونة قلق.

هناك دائماً رصيدٌ جمعيٌّ من الأغاني، تتكدّس فوق بعضها البعض، مثل طاقةٍ متوثبة، مثل وترٍ مشدود إلى أقصاه، سيصيب خاصرة العالم.

ماذا لو راكمنا في الخلاء حزنا؟ حزني أنا، حزن أمي، حزن زوجي.. وآخرين، هذا رصيدٌ كوني للحزن، إننا نغذي التنين. نظن بأن حزننا يخصنا وحدنا ولكن هذا غير صحيح،

إنه يتراكم، يتلقى بأحزانٍ أخرى، يتحول إلى قـدرة كامنـة للانفجار.

أوجاعنا تكتنز، تستحيل قوة جبارة، جراحنا هي الشـريانُ الذي يغذي صنوف المصائب والرزايا: الكـوارث، الحـروب، الزلازل، المجاعة. كل شيءٌ يحدث بمساهمةٍ منا، كل جميل/كل قبيح هو محصلة الأغنياتِ التي نطلقها بالخلاء.

قل لي: من أنت وما هي أغنيتك؟

أقول لك أيّ عالمٍ هذا الذي تساهمُ في بنائه.

كلنا بناءون.

مهما أمعنّا في الهدم.

17 أبريل 2011

الساعة 5:35 مساءً

كل الأبوابِ تفضي إلى بعضها، وأنا.. طافية في البياض المحايد للفكرة في أكثر أطوارها تجرُّداً، أرى الأمور بشفافية مستحيلة، أشهد انقلاب الأضداد إلى بعضها، وأرى الشيء يُفضي إلى نقيضه، الفوارق تذوبُ، الحدود تتقوض، أرى العالم فيّ، وأراني في قلبِ العالمِ، أنا قلبُ العالم، وأسمعُ صوت نبضاتي.

وكأنني لفرطِ ما تمليّتُ في الموت وأمعنتُ النظر فيه، بت أفهم الحياة أكثر، وأرى أن لا فرق إن بدأت مشوارك منك إلى غيرك، أو من غيرك إليك.. من نهايتك إلى بدايتك، أو من بدايتك إلى نهايتك، أرى الدائر تكتمل، تنغلق، القوس العظيم يمد يده صوب يده الأخرى، الضفتان تلتقيانِ ويتحقق التمام.

إنني أوشك على أن أطوي صفحة قد تكون الأخيرة في كتابي، ولا أعرف إن كان طيها يعني حياتي أو موتي، وأعرف بأنني بتّ أعرف أموراً مهمة، وإذا كانت مهمتي في هذه الحياة قد انقضت، بعد أن أخذتني وفاة ولدي عبر حلقوم الألم إلى هذا الطفو المحايد في بياضِ اللحظة، في غبش الوعي، في التباس الفكرة وحريتها.. إذا كانت اليد الإلهية قد خلقتني لذلك، فأنا قد أوشكت على إتمام مهمتي، وقد يعني ذلك أيضاً رحيلي، وإن كان ثمة أشياء أخرى ستمنحها الحياة لي، فقد يعني الغدِ حياةً جديدةً، توهب لي بسخاء للمرة الخامسة.

هذه المرة لن أكره عودتي. لو قدّر لي أن أعود فسأجرب الوجود بطريقةٍ أخرى، ربما أتطوّعُ في منظمة خيرية، ربما أتبنى، أو أنخرطُ في نشاطٍ بيئي، مثل تنظيف الشواطئ؟ سأكون بقربِ البحر دائماً.. وروح أبي. لو قدّر لي أن أعود سأطلب من أمي أن تعلمني كيف أحيك "الكروشيه" لأن المفارش التي تصنعها مبهجة للنظر، إنها محكمة ومتواشجة ومتداخلة في بعضها بعضاً مثل قصيدة. لو قدّر لي أن أعود سأخرج مع مريم وإسراء كل يوم جمعة إلى السّوق، سأجرب التسكّع في المجمعات التجارية وقد يعجبني الأمر. لو قدّر لي أن أعود لن أرجع للعمل في الحكومة. سيكون عندي مشروعي الخاص.. مكتبة ربما؟ لو قدّر لي أن أعود سأدخل المطبخ أكثر، سأتعلم كيف أخبز أرغفةً منزلية، لطالما تمنيت ذلك. سوف أتغاضى عن لسان الإسفلتِ الطويل الذي يبدأ بمجرد خروجي من البيت، سأتخيّل الأشجار عوضاً عنه. ربما أضع أصص ورد عند مدخل بابي، وعند نافذة غرفتي. لو قدّر لي أن أعود سأقتني قطة شيرازية ولن أكترث كثيراً لعطاسي وبثور يدي. سأخرجُ مع معاذ في كل فرصة سانحة لشرب القهوة أو تذوق الآيس كريم. سوف أنظرُ في مطالب عدنان، استشارة علاقات زوجية؟ ربما يرمَّمُ الشرخ وربما السراح الجميل.. لو قدّر لي أن أعود سأتبرّع بملابس عزيز للعراة، وبألعابهِ لأطفال السرطان، وبسريره لأطفال أفريقيا. وسأخبره في كل مرة أفكر فيه بأنني أحبه.

ما لي وهذه الأحلام؟ عليّ أن أنتبه إلى (الآن).. الشيء الوحيد الذي أملكه.

هذا الأسفلِ العظيم، إليهِ سأنزلُ بملء رغبتي.

17 أبريل 2011

الساعة 7:04 مساءً

من الأعلى العظيم تاقت روحي إلى الأسفل العظيم

روحي هجرت السماء وتركت الأرض

إلى العالم الأسفل قد هبطت

تركت الزوج والأم والأخ

شدّت إلى وسطها

جرحاً له وجه طفل

وعلى قمة رأسها

يلمعُ سؤال.

القلائد، الصولجان

أثاثُ الحياةِ الدنيا وزهرتها المجففة

أشبك يدي بيديها

إنانا صديقتي السومرية القديمة

أزلية الحضورْ..

أشبكُ يدي بيدها وأضع رأسي على كتفها قليلاً

أقول لها يا صديقتي.. يا رسولتي!

يا مصدر عوني الدائم!

يا ملهمة كلماتي الحقة

إني لهابطةٌ إلى العالم السفلي

إلى الأسفل العظيم..

روحي، تاقت إلى بعضها المعتم
والمعرفة لا تكون إلا ألماً
فإذا ما بلغتُ العالم السفلي
فالأمر إليكِ
املئي السماء صراخاً
إن شئتِ
أو صمتاً
إن أحببتِ..
وهو الأجدرْ بكِ.
فالرّوح المعلقة في السديم الأبيض
مثل فانوسٍ مكسور
حرة خارج قيدِ اللحمِ
امضِ يا إنانا
ليس عندي وصية
ولا رغبة أخيرة
سوى المضيّ
هذه الخطوات السبع الأخيرة
لي وحدي..
إني لهابطةٌ إلى العالم السفلي
إني لهابطةٌ إلى العالم السفلي
فأين بواباته السبع؟

17 أبريل 2011

8:20 مساءً

منذ متى وهو يقف خلف الباب؟

- هل تحتاجين إلى شيء؟

أرى قلقه بوضوح، أبتسمُ لقلقه. قلقهُ جميلٌ ويعجبني.

- لا.

- لم تأكلي شيئاً منذ الأمس.

هذا صحيح، لم آكل شيئا ولا أحس بالجوع، وكأن سطوة الجسد قد تلاشت تماماً، ولديّ في كل خليةٍ من جسدي طاقة خارقة للكتابة.

- اتصلت أمّكِ.

- سأتصل بها إذا فرغتْ.

أشك بأنني سأفرغُ.. بقي أقل من أربع ساعاتٍ على الثامن عشر من أبريل، ولا أعرف ماذا سيحدث، أريد أن أنجز الكثير خلال أربع ساعات.

- تعالي لنجلس قليلاً.

كان وجهه جاداً، ورقيقاً أيضاً، وكان الضعف الذي يبديه إزائي جميل فعلاً.

- لا أستطيعْ.

- نصف ساعة فقط.

- لا أملك نصف ساعة.

استدار مغادراً، فتألمت لأجل محاولته الفاشلة، واستدركتُ قائلة.

- أريد هذا اليوم يا عدنان، أحتاج هذا اليوم.
- نعم. أفهم ذلك.
- سنجلس معاً غداً.. على الغداء ربما؟
- أتمنى ذلك.

قالها والابتسامة على وجهه تشبه شرخاً من حزن..

- سنجلس معاً غداً، إذا كان هناك غد.

17 أبريل 2011

الساعة 9 مساءً

- تعالي فادخلي يا عائشة.

إنني أدخلُ البوابة الأولى. عتبة العالم السّفليِ. إن قدمي تعبرُ الآن مملكة الأعالي، "ذلك المكان الذي تشرق فيه الشمس". ادخلي يا عائشة. أنا الواقفة عند باب، حارسة البوابةِ الأولى أنا. وأنا العابرة، وأنا الطريقْ. ادخلي يا عائشة، ولدى دخولكِ من البوابة الأولى، اخلعي عنكِ جلد المكان، هذا المكان بأثاثهِ ورياشهِ ورائحة تفاصيله، ويصيحُ بعضي ببعضي الآخر: ما هذا الذي تفعلين؟ هذا المكان هو أنا!

- **أي عائشة "لقد صيغت قوانين العالم الأسفل بعنايةٍ واكتمال، فلا تناقشي يا عائشة شعائر العالم الأسفل". انفضي عنكِ المكان، البيت، الغرفة، الجدران، جغرافيا الذاكرة وعنوان عزلتك. جرحكِ يفيض من وجهِ المكان ويعبئ ملامحه بالمالحِ من الكلامِ والحارّ من الدمع. حلّقي خارج الخارطة وكوني الفراغ، كوني الأثير. تعرّي يا عائشة من فخاخ اللون، وفتنة الرائحة. انخلي روحك حتى تصفو من الوجوه، من الذكريات. كوني خارج البرواز، اكسري الإطار يا عائشة وتخففي منكِ. من أنتِ الآن؟ الرّوح في عريها. جوهرٌ وشيك.**

إنني أدخلُ البوابة الثانية. عتبةٌ أخرى نحو عرائش العتمةِ وأحراشِ الغياب. إنني أخطو خطوة ثانية داخل هذا العالم. ادخلي يا عائشة. أنا حارسةُ بوابة الموتِ الثانية، وأنا العابرة إلى أرضِ الرّحيل، وأنا الرّحيل. ادخلي يا عائشة، ولدى دخولك من البوابة الثانية، انتزعي من روحكِ حسكَ بالزمن، لحظات العالم أشواك وحسك، باطنك يمتلئ بها. تخففي يا عائشة من سطوةِ الزمن واخرجي إلى أبدية اللحظة وحلّقي هناك. يصيحُ بعضي ببعضي: ما هذا الذي تفعلين؟ هذا الزمن هو أنا!

- **أيْ عائشة "لقد صيغت قوانين العالم الأسفل بعنايةٍ واكتمال، فلا تناقشي يا عائشة شعائر العالم الأسفل." الزمن صنو المعرفة. به يتم إدراك الموجود لذاته، ومن خلاله تعرفين آنية الحياة وحتمية الزوال. الزمن أول محرض للوعي وأول سؤال للإنسان. الزمنُ جرحكِ الفادحُ يا عائشة، بلحظاتهِ كنتِ تجلدين وعيكِ وتمزقين كبدكِ. اخلعي الزمن. اخلعي حدّ الوعي وأسئلة اللحم وحلّقي مثل جسدٍ أثيري خارج اللحظة. تذوّقي إكسير الأبدية قليلاً واكسري دائرة الأيامِ وكوني ذاتك، خارج المكان/خارج الزمن/خارج العالم. من أنتِ الآن؟ جوهرٌ أصفى..**

وأدخلُ البوابة الثالثة. مزيدٌ من العتمةِ ذاتِ البريق. هناك الغامضُ الملتبسُ يناديني وأشتهيه. ادخلي يا عائشة! أنا حارسة بوابة الموتِ الثالثة، وأنا الماضيةُ إلى الغيابِ بملء حلمي، وأنا الغياب ذاته. ادخلي يا عائشة، ولدى دخولكِ من بوابة الموت الثالثة، أخرجي نفسك من نفسك، اخلعي عنكِ الأم والأب..

يصيحُ بعضي ببعضي: ما هذا الذي تفعلين؟ أمي وأبي هما أنا!
كيف أخلعُ عني أبي وأمي؟

- **أي عائشة، لقد "صيغت قوانين العالم الأسفل بعنايةٍ واكتمال، فلا تناقشي يا عائشة شعائر العالم الأسفل".. والداكِ هما جذوركِ الممتدة في بطنِ الأرض. حبلكِ المتوغل في سرّة العالم. الحضن/العش/الدفء.. كوني أكثر جسارة يا عائشة وحلّقي خارج وجودك، تخلّي عن والديكِ، مزّقي كل ما يحجبُ عينيكِ، كل ما يحول بينك وبين أن تكوني شمسكِ الخاصة، وقمركِ ونجومكِ أيضاً. من يدري يا عائشة قد تستحيلين سماءً؟ قطراتُ الحليبِ الأولى هي بدايةِ الوعي، ولكن حتى تبلغي نهايته يجب أن تكفري بتلك البداياتِ وأن تتخففي، تخففي منكِ، من أثقالكِ الأرضية وعلائقك بالأشياء، أنتِ متورطة بالكثير ومليئة بالعناصر ومفرطة في الكثافة. تخففي! كوني أنتِ فقط، أنتِ البهية في عري اللحظةِ. من أنتِ الآن؟ جوهرٌ أشفّ.**

ها أنا أعبرُ بوابة الموتِ الرابعة. نحو العتمة البيضاء، أرى نوراً أخيراً وأمضي صوبه. أسمعُ أغنية العالم تنبثقُ من داخلي وأتبعُ الحدس وحده. ادخلي يا عائشة! أنا حارسةُ البوابة الرابعة، وأنا الماضية إلى حتفها رقصاً، وأنا الأغنية. ادخلي يا عائشة، ولدى دخولكِ من بوابة الموتِ الرابعة اخلعي عنكِ أخيكِ وأختيكِ. زلزلي أعمدة الروح وامضي. يصيحُ بعضي ببعضي:
كيف أخلع أخي وأختيّ؟ إنهم أنا!

- **أي عائشة "لقد صيغت قوانين العالم الأسفل بعنايةٍ واكتمال، فلا تناقشي يا عائشة شعائر العالم الأسفل"..**

الأخ ركنُ الروح، زاوية الذاكرة، مفصلُ الذكرى. الأخ عامودٌ في روحكِ فانقضيهِ وامضي. تخففي من كل ما هو دخيلٌ عليك ولو كان جميلاً، قوّضي الخارج وزلزلي أركانه، كوني أنتِ فقط، كوني حرّيتك الخاصة. من أنتِ الآن؟ جوهرٌ أبهى..

ها أنا أعبرُ بوابة الموتِ الخامسة. ماذا سأخلعُ الآن؟ أرى في نهايةِ الطريقِ فراشاتِ الضوء الملونة. الغناء في باطني يعلو، قلبي يرفرفُ وروحي. ادخلي يا عائشة! أنا حارسةُ البوابة الخامسة، وأنا المتولهة إلى فنائها، وأنا الضوء الطليق. ادخلي يا عائشة، ولدى دخولكِ من بوابةِ الموت الخامسة، انتزعي عنكِ زوجكِ.. انتزعيه واتركيه مع إرثكِ الأرضي وامضي خفيفةً طليقة. يصيحُ بعضي ببعضي: كيف أنتزع مني زوجي؟ زوجي هو أنا!

- **أي عائشة "لقد صيغت قوانين العالم الأسفل بعنايةٍ واكتمال، فلا تناقشي يا عائشة شعائر العالم الأسفل".. الزواج رباط، الرباط قيد، القيد حجاب، الحجاب عماء. تريدين المعرفة والحرية يا عائشة؟ باركي زوجي وأطلقيه، حرّريه. كوني أنتِ بذاتكِ، كوني وحيدة بما هو أهلٌ للمجدِ. ماذا أنتِ الآن؟ جوهرٌ أنقى.**

ها أنا أعبرُ بوابة الموت السادسة. ماذا ستنتزعُ مني قوانين العالم الأسفل؟ أرى الضوء يكبر. الكوّة تتسع. ماذا في نهاية النفق الطويل؟ أنا حارسةُ البوابة السادسة، وأنا الناموسُ المسدد إلى قدري، وأنا موتي الخاص. ادخلي يا عائشة، ولدى دخولك من بوابةِ الموتِ السادسة اخلعي عنكِ تلك التي تحبين: الكتابة! ذريها وراءك وامضي من غير حروفكِ، سكونها وعجيجها..

دعي الكتابة تتسربُ من مسامِ روحك واشهدي بنفسكِ على انحلالها. يصيحُ بعضي ببعضي: كيف أخلعُ الكتابة عني؟ أنا الكتابة ولا أكون إلا من خلالها.

- **أي عائشة "لقد صيغت قوانين العالم الأسفل بعنايةٍ واكتمال، فلا تناقشي يا عائشة شعائر العالم الأسفل".. الكتابة ينبوعُ السؤال، ماءُ القلق، فن الوجود. الكتابة هي قلقلة السكون وهزهزة الثباتِ وترويعِ المطمئن. الكتابةُ ظهورٌ صريحٌ للمعرفة، وكل ظهور حجاب. تخففي من روحكِ الكاتبة وامضي حرّة. ماذا أنتِ الآن؟ جوهرٌ أرقى.**

ها أنا أعبرُ بوابة الموتِ السابعة. أنا على عتبةِ الرحيل الأخيرة. أرى العدم، يبرقُ ويشع. كيف أراه وهو يتوهج على هذا النحو؟ إنه يمتصّ روحي وأنا أهفو إليهِ وأحتفل بخفتي. ادخلي يا عائشة! أنا حارسةُ البوابة السابعة، أنا الحجاب الأخير الذي يحولُ بيني وبين النور، وأنا النور. ادخلي يا عائشة، ولكن لكي تدخلي ينبغي أن تتخلي عنكِ كاملة، ولم يبق منكِ إلا أن تخلعي عنكِ جرحكِ الصريح - ولدكِ وذكراه. ينتابني الذعر، يصيحُ بعضي ببعضي: كيف أتخلى عن ولدي؟ ولدي هو أنا، جرحي وجهي! من أكونُ أنا خارج هذا الجرح؟

- **أي عائشة "لقد صيغت قوانين العالمِ الأسفل بعنايةٍ واكتمال، فلا تناقشي يا عائشة شعائر العالم الأسفل". ولدك هو ألمكِ، ألمكِ هو أنتِ. الجرح بات له وجهك واسمك ولهاث أنفاسك، لا يعرف الناظر إليكِ أين يبتدئ جرحكِ وأين تنتهي صرختكِ. تتشبثين بأحبالِ دموعك كما لو خلاصكِ. تتسربلين بحزنكِ الأبدي**

وتؤلمين العالم بألمكِ. ليس بوسع الكون أن يكون ضحيتك يا عائشة. اخلعي جرحكِ، قبليه بين عينيه وأطلقيه، حرّريه، الثمي طيفه واسمحي له بالرّحيل. مع كل بوابةٍ كنت تتخففين منكِ وتتخلين عن بعضكِ. كل العلائق التي تركتها في البواباتِ الستّ السابقة كانت لأجل تهيئتك لهذه، كلها لا تضاهي هذه في الثقل والكثافة. لن يكتب لكِ الخلاص إلا بتجاوزكِ لنفسكِ، امتلئي محبةً يا عائشة وأطلقي روحه حرّة، ماذا أنتِ الآن؟ روحٌ محضة.

18 أبريل 2011

12:01 صباحاً

مثلما خلعت إنانا صولجانها وتاجها وثيابها وحليّها، في كلّ بوابةٍ من بوابات العالم السفلي، لتكتشف ذاتها عاريةً وخفيفةً بلا زوائد ولا نتوءات، كنتُ أقوّض كل جسرٍ يربطني بهذا العـالم، وأقطعُ كل صلةٍ ممكنة، المكان والزمـان والـذاكرة، الجـرحِ والحب والعائلة. كنتُ أتخففّ من كل شيء، كنتُ أكونني. كنت أنا، لأول مرة في حياتي استطعتُ أن أكونني، بدون أن أكـون الزوجة، أو الأم، أو الابنة، بدون أن أكون أي شيء بخلاف ما أنا عليه، روحٌ محضة. إحساسي بحقيقتي الروحية قويٌ جـداً، ولستُ بحاجة لأن أموت لكي أشعر بذلك.

أحس بأنني أخف، أخطو فوق الهواء، وأستطيع الـركض لساعاتٍ في فراغ اللحظة. إنني أدلفُ يوم الميعاد، وهذه قيامتي قد حانت وأنا أراها.. تعركُ عينيها. الساعة الآن تجاوزت الثانية عشر صباحاً بدقائق قليلة، واليوم هو الثامن عشر مـن أبريـل للعام 2011، وأنا لا أعرف ماذا سيحصل لي، أموتٌ أم بعـث؟ سأكتشف ذلك قريباً.

أنوي أن أضع القلم من يدي الآن. أحسُّ بأنني قد قطعـتُ أميالي، ووفيتُ بوعودي، وبأنه قد آن لي أن أرتاح. لن أكتـب المزيد. إذا كان هذا هو آخر أيامي فأنا لا أنوي أن أحياهُ كتابةً. لقد وعدتُ عدنان بأن أجلس معه اليوم، وأكيد سأتصل بعائلتي.

هذه هي آخر صفحةٍ من حياتي الكتابية، وأنا مستعدة لطيّها الآن، وأفعل ذلك بامتنانٍ ومحبة. إنني أمضي صوب المجهول، شأني شأن جميع الناس، وإذا كان المجهول يعني رحيلي فقد كانت حياتي في الأيام السبعة الأخيرة جديرة بالعيش. من يدري؟ ربما أنقذني حلمي، ربما أكونُ إنانا هذا العصر، إن روحي متوهجة.

فلأكفّ عن الكتابة إذن، وأذهب لتجربة العالم..

تمّت..

الكويت

2011/2010

المؤلفة

بثينة وائل العيسى

- مواليد 3 سبتمبر 1982.
- حاصلة على شهادة الماجستير في تخصص التمويل والمنشآت المالية، كلية العلوم الإدارية - جامعة الكويت 2010.

صدر لها:

- ارتطامٌ لم يسمع له دوي (رواية) عن دار المدى - سوريا 2004.
- سعار (رواية) عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت 2005.
- عروس المطر (رواية) عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت 2006.
- تحت أقدام الأمهات (رواية) عن الدار العربية للعلوم ناشرون - بيروت 2009.
- قيس وليلى والذئب (نصوص) عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت 2011.

الجوائز:

- حائزة على جائزة الدولة التشجيعية عن روايتها "سعار" 2006/2005.
- حائزة على المركز الأول في مسابقة هيئة الشباب والرياضة 2003- فرع القصة القصيرة.

- حائزة على المركز الثالث في مسابقة الشيخة باسمة الصباح - فرع القصة القصيرة.
- حائزة على المركز الثالث في مسابقة مجلة الصدى للمبدعين 2006.

http://www.Bothayna.net

Twitter @Bothayna_AlEssa

هوامش الكتاب

1 كامل يوسف حسين، في تقديم كتاب : الموت في الفكر الغربي لـــ جـــاك شـــورون، صفحة (و).

2 يوكيو ميشيما: لقد اكتشفت في الموت هدف حياتي الحق.

3 بتصرف من قصيدة "النهر والموت" لبدر شاكر السياب.

4 أبو العلاء المعري: اللزوميات (الجزء الأول المطبوع بمطبعة المحروسة، القـــاهرة 1891م، والجزء الثاني المطبوع بنفس المطبعة 1891م)

5 "إن الإنسان ليس فانياً فحسب، وإنما هو تجسيد للموت، إنه هو موتـــه الخـــاص" - إلكسندر كوجيف "مقدمة لقراءة هيغل" - الطبعة الخامسة، باريس، جاليمار 1974.

6 أبو العلاء المعرّي، سقط الزند - صدر عن دار بيروت ودار صادر فـــي 1957 - من قصيدة (ضجعة الموت رقدة).

7 المصدر السابق.

8 جاك شورون، الموت في الفكر الغربي، ترجمة كامل يوسف حسين، عن المؤسســـة العربية للدراسات والنشر، صفحة 281.

9 الأعمال الكاملة، فويرباخ، الجزء الخامس والثالث، صفحة 15-17. "بتصرف"

10 بوليس (رو 14، 7).

11 إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (الزمر : 30)

12 ميلان كونديرا، الحياة هي في مكان آخر.

13 شوبنهاور.

14 Jeffery Long, Paul Perry - Evidence of the afterlife; the science of near death experience.

15 كامل يوسف حسين، في تقديم كتاب : الموت في الفكر الغربي لـــ جاك شورون

16 فراس السواح، لغز عشتار، دار علاء الدين، الطبعة الأولى 1985

17 المصدر السابق.

18 "الأبدية تتربص بي" - خورخي لويس بورخيس.

19 جان بول سارتر.

20 مدخل إلى نصوص الشرق القديم، فراس السواح، دار علاء الدين، الطبعة الأولـــى، دمشق 2006

21 سورة الزمر، الآية 30.

22 رواه الترمذي وقال حديث حسن.

23 طاقية الرأس.

24 سورة القيامة، الآية 36.

25 سورية القيامة، الآية 40.

26 فراس السواح، مغامرة العقل الأولى، دار علاء الدين، الطبعة 12 عام 2002، صفحة 315.

27 ركائز الشخصية عند فرويد هي ثلاثة: الهو - مستودع الغرائز والرغبات المكبوتة، والأنا الأعلى- الضمير والضابط الخلقي للفرد وكل ما يحقق الكرامة للفرد، والأنا - الشخصية المميزة للفرد والتي تحاول أن توفق بين رغبات الـ "هو" وبين سلطة "الأنا الأعلى".

28 وردت هذه الشخصية بصفتها وزير إنانا تحت اسم "ننشوبور" في (مغامرة العقل الأولى) لفراس السواح، ثم تحت اسم "ننشوبار" في (لغز عشتار) لفراس السواح أيضاً، رغم أنها وردت بصورة مؤنثة في أسطورة "أنكي وإنانا"، ترجمة فراس السواح نفسه.

29 هنا نادت إنانا خادمتها ننشوبور:

- لقد كنتِ فيما مضى ملكة الشرق

والآن أنت القيّمة المخلصة على هيكل أوروك.

فيا معينتي التي تقدّم النصح الحكيم،

ويا مقاتلتي التي تحارب في صفي،

تعالي أنقذي زورق السماء والنواميس المقدسة!

ننشوبور شقّت الهواء بذراعها،

وأطلقت صرخة تهز الأرض،

قذفت تنانين الإينكوم وأعادتهم إلى إيريدو - فراس السواح/مغامرة العقل الأولى.

30 Dan Sewell Ward -The Descent into Hades- http://www.halexandria.org/dward385.htm

31 ميلان كونديرا.

32 من رسالة في الخوف من الموت - أبو علي أحمد بن محمد بن مسكويه

33 هيروقليطس.

بثينة العيسى

عائشة

تنزل إلى العالم السفلي

أنا عائشة.

سأموتُ خلال سبعةِ أيّام.

وحتى ذلك الحين قرّرتُ أن أكتب.

لا أعرف كيف يفترض بالكتابة أن تبدأ، الأرجح من مكانٍ كهذا.. حيث يورقُ كلّ شيءٍ بالشك.

تبدو الكتابة وكأنّها الشيءُ الوحيدُ الذي أستطيع فعله. أريدُ أن أضع نقطةً أخيرة في السّطر الأخير، قبل أن يبتلعني الغياب.

لقد قررتُ أن تكون أيامي الأخيرة على هذه الشاكلة. أقصد: على شاكلة الكتابة. الكلمةُ كائنٌ هشٌ ومتهافت، إنها تشبهني. وأنا.. في أيامي الأخيرة، أريد أن أشبهني بقدر ما أستطيع. إنني أفعلُ ذلك من أجلي. هذه الأوراق، هذه الكتابة، هذا الجرحُ: لي أنا.

هذه الكتابة ليست توثيقاً لحياتي. ما فات لم يكن جديراً بالاهتمام، كل شيءٍ سبق وانتهى، وهذه الكتابة لا تفضي إلى مكان، ولا أعتقد بأنني قد عشتُ حياةً تستحق أن تؤرّخ. إنني أكتبُ لكي أكون واضحةً معي، وحيدةً معي، مليئة بي. هذه الكتابة لا تداوي، بل تُميت.

الموتُ جيّد، وأنا أريده من كلّ قلبي.


الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com




ISBN 978-614-01-0370-2
9 786140 103702

تصميم الغلاف: محمد النبهان – تصوير: محسن المبارك